شرفة على الحمراء

شرفة على الحمراء

أحمد محمود سليمان

إهداء

أُهدي هذا الكتاب لكُم

أنتم الذين شجعتموني على الكتابة

إلى مصطفى حسين

إلى أحمد عطية

إلى هشام

إلى كريم وشلة الهياسيم

إلى الذين قرأوا فصول تلك القصة وقوَّموني فيها وعدلوا عليَّ

إلى كُل مُحب للأندلس

إلى كُل مُشتاقٍ لزيارتها

إلى أبناءها المتناثرين بين البلدان

وإلى كُل قارئ أهديه تجربتي لعلَّك تستفيد منها.

لعلك تعلم منها أنك تستطيع فعلها،

لعلك تقف يومًا بالحمراء وتقول استفدت من هذا الفتى شيئًا ولو يسيرًا سهلَّ رحلتي.

شكرًا لكُل من سيقرأ الكتاب حتى لَو لَم يعجبه، شكرًا لأنك قدرتني وأعطيتني من وقتِك ما لا قد أستحقه.

المُقدِّمَة

قد تبدأ المُقدمَة عادةً بمُلخص عن الرِّحلة أو عن فكرة الكِتَاب كليَّة،

لكِن هُنا أجعل مُقدِّمتي عن لماذا والخاتمة كيف..

لا أدري هل هذا مقبول من الناحية العقلية والمنطقية للكُتُب، لكِن لأنَّها التَّجربة الأولى وأرجو ألا تكون الأخيرة؛ فإني قد جعلت المُقدِّمَة عن لماذا والخاتمة عن كيف.

أما كيف؛

فكيف كانت الرِّحلة؟

كيف كانت مصاريفها؟

وكيف كانت التَّأشيرة؟

وكيف حجزت المُواصَلات والسَّكن؟

أما هُنا فالحَديث عن لماذا!

لماذا الأندلس؟

ولماذا الكِتَاب؟

وللمعلومة مصروفات الرحلة كلها كلفتني قرابة (750دينار كِويتي) مدة أسبوعين بين إسبانيا وإيطاليا شاملة مباراة كرة قدم وتي شيرت لنادي "إيه سي ميلان" وسيأتي بعدُ تفصيل المشتريات داخل الكِتَاب والتَّذاكِر في الخاتمة.

مِن لماذا نبدأ؟

لماذا الأندلُس؟

الأندلُس لم تكُن لي مُجرد حقبة تاريخية من حقب المسلمين على مرَّ التاريخ.

الأندلُس لم تَكُن قِصَّة أُمّة سَكنت مكانًا ثم رَحلت؛

فقد غزا المسلمون صقلية وباري ومدينة سويسرية كما سأبين باختصار شديد.

الأندلس ليست مُجرد حضارة كما دِمشق والقاهرة.

الأندلس ليست مذهب فكري كما إيران مثلًا.

فماذا الأندلس؟؟؟

الأندلس هي كُل هؤلاء.

كُل ما سَبق من دون اختلاف مَذهبي

فالأندلس دولة أوروبية مكث بها المسلمون 800 عام، وأسسوا حضارة ثم انقضت وبقيت الحضارة وأنقاضها..

سأل أحد الناس لماذا يبكي الناس على الأندلس ومحاكم التفتيش التي انتهت فعليًّا مع غزو نابليون إسبانيا منذ قرنين ولا يبكي أحد على مآسي الأُمّة في الهند أو الصين حيث الاضطهاد المستمر؟

لم يستطع أحد الإجابة لكني قلتُ جوابًا رُبما هو الأوَقع وليس الأصلح..

قلتُ له لأن الأندلس هي القطعة الشيك (ذات الرونَق الجذَّاب) في حضارة الأمّة؛

فأجاب هو كذلك.

قصتي مع الأندلس بدأت منذ 2003 تقريبًا مع العودة للقراءة والاهتمام خصوصًا مع دراسة الشعر الأندلسي لابن زيدون وفَن المُوشَّحات.

ومن ثَم بعد الذهاب للجامعة والاستماع لشرائط الشيوخ في التاريخ ومشاهدة المسلسلات خاصة – أو بمعنى أدق – حصريًّا ثلاثية الأندلس لوليد سيف وحاتم علي.

في يناير 2007 ذهبت إلى معرض الكتاب واشتريت سلسلة الأندلس من الفتح إلى السقوط للدكتور راغب السرجاني التي تتكون من 12 شريط سمعت كل واحد منهم في يوم فقط

ثم بدأ المشوار.

كتب ومحاضرات وأشرطة وندوات ومسلسلات عن تلك النقطة الجميلة المُرصَّعة بالذهب في ثياب الأمة.

زيارة الأندلس كانت حلمًا لي طوال المدة الفائتة لا أدري متى بدأت حتى تحقق الحلم في 2019.

وهذا يقودنا إلى "لماذا" الثانية.

لماذا الكتاب؟

أدعي أن هناك مليون شخص ما من المليار وسبعمئة مليون أو بالأحرى من الأكثر من ثلاثمئة مليون عربي، أدعي أن هناك مليون منهم يهيم شوقًا إلى الأندلس، وأنا منهم وأدعي أنهم يريدون زيارة الأندلس واستنشاق عليلها.

وتلك المليون ليست مبنية على دراسة أو شيء من هذا لكن هذا شعور ما يصاحبني.

بعد عودتي من الرحلة اقترح عليَّ أحد أصدقائي أن أكتب ذكرياتي في الرحلة فبدأت بقُرطُبة ثم إشبيلية ....

غير أني بعد قُرطُبة حدث ما حدث من تداعيات العالم الموبوء فتأخرت في الكتابة كثيرًا حتى انتهيت في فبراير 2021 من كل شيء.

اقترح عليَّ كُثرٌ تحويل الرحلة إلى رواية خاصة مع وجود عنصر بطل للرواية كمارية التي قابلتها في قطار قادش - إشبيلية غير أني فكرت في أن أجعل الكِتَاب عن تجربتي لعل أحدًا يستفيد منها أو يستمتع بها.

ومع تباعد زمن الكِتَابة الذي اقترب من سنة قد تكون خانتني الذاكرة في شيء ما أو سعر لشيء ما غير أني اجتهدت واعتصرت ذهني مرارًا حتى أصل لما كتبته بتفصيلاته

لذا أقول إن 99% من المعلومات عن الرحلة صحيحة وإن خانتني الأسعار قليلًا أو التوقيتات فهي مما يَسهو عنه الإنسان.

أما معلومات التاريخ فهي معلومات رائجة اعتصرتها من ذاكرتي كما راجعت فيها ويكيبيديا وجوجل ولم أعبأ بتنقيح المصادر لأن الكِتَاب ليس للتاريخ بل للواقع.

ولا أدعي أني أهملت التاريخ بل أهملت تحقيق مصادره.

وفي النهاية هل تريد أن تقول إنك تبغي أن تصل للمليون مُحب للأندلس؛ معاذ الله كلَّا ثم كلَّا.

بل هي تجربة أريدها أن تصل إلى من تستطيع الوصول إليه سواء واحدًا كان أو مليونا

غير أني كنت صادقًا في طرحها محاولًا إظهار مشاعري ورغباتي التي منها مثلًا سعيي للصلاة في مسجد في كُل مدينة ذهبتُ لها.

وكانت حاجة أقضي بها أربي.

وأتمنى من الله أن يوفقني لنجاح هذا الكِتَاب وأن يَنال إعجابكم.

أحمد محمود سليمان (2021/2/11)

مَدرِيد

يقولون عنها مجرى يط أو مجريط، ويقولون أيضًا هي تلك العاصمة الوحيدة في أوروبا التي بناها المُسلمون إذ ينتسب بناؤها للأمير الأموي "محمد بن عبد الرحمن الأوسط" وهُناك من يُشكك وهُناك من يُؤكد.

فلندع التاريخ والجغرافيا والذكريات واسم المدينة وعلماءها ونذهب إلى التجربة التي كانت على بساطتها أبسط من تلك البساطة؛ فكانت محطة القدوم وراحة الجسم، ومن ثم فستكون منطلق الرحيل إلى إيطاليا.

كنت قد خططت لأن تكون مَدرِيد مدينة الوصول كما هو المتاح حسب تذاكر الطيران الرخيصة وحتى الغالية.

كان الخيار بين مَدرِيد وبرشلونة، وعلمت بعد ذلك أن مالقة متاحة للحجز، لكن لم تكن مالقة مناسبة لي محطة أو هكذا كنت أظنُّ، أما برشلونة فلبعدها وسعيي للأندلس فقط هدفًا رئيسيًّا للرحلة التي رأيتها رحلة العمر.

كانت خطتي لمَدرِيد غاية في البساطة يوم الوصول، والتمشي بين شوارعها التي لا أعلم عنها شيئًا.

ثم الرحيل مبكرًا لإشبيلية، فالعودة من غرناطة إليها يوم الجمعة، وبعده ثلاثة أيام ورابع للسفر

فيوم الجمعة العائد فيه من غرناطة سيكون للراحة، والسبت لمشاهدة مباراة كرة قدم لفريق "ريال مدريد" الذي أهواه ولا أشجعه، لكن كان

يجب أن تزور استاد (سنتياجو برنابيو) لتحصل على البركة، وتسجل في تاريخ ذكرياتك أنك كنت يومًا ما تشاهد (زيدان وراموس) والبقية العادية من أبناء النادي.

ثم يوم الأحد الذهاب لطليطلة

والاثنين كانت الحيرة، فأمامي ثلاث وجهات كلها تصعب في السفر؛

إما "سرقسطة" وإما (سيجوفية أو شقوبية) وإما مدينة "سالم"..

أما سرقسطة فكانت لقصر الجعفرية، وأما شقوبية لشهرتها بقلاع قشتالة الحصينة، وأما مدينة سالم فلزيارة قبر المنصور بن أبي عامر.

ولأن شدَّ الرِحال للمساجد لا يجوز، فاستبعدت بالقياس مدينة سالم.

ولأن سرقسطة بعيدة فقررت الذهاب لشقوبية..

ولكن تأتي الرياح بما تشتهي السفن فألغي يومين من الرحلة وأضيف ثالثًا لها لكن خارج الجزيرة الإيبيرية.

بنصيحة لأحد الزملاء قررت الذهاب إلى إيطاليا بدءًا من الأحد والعودة للكُويت يوم الأربعاء، فألغيت يوم الاثنين بحيرته وكنت أظنُّ أني أستطيع أن أدمج السبت والأحد معًا، فيكُون صباحًا طليطلة، ومساءً مباراة "السانتياجو".

وللأمانة هذا الدمج ممكن وإن كان يحدوه صعوبة لكن بالتخطيط الدقيق ممكن.

فطليطلة نصف ساعة من مَدرِيد بالقطار، وكثير من الدقائق في التجول بين جدران المدجنين فتستطيع أن تفعلها.

لكن في قليل من التفكير قررت ألا أربط نفسي بطليطلة، وندع الرحلة تقرر مصيرها ومسيرها.

ومِن هنا نَبدأ

ما أصعب الانتظار!

وما أصعب أن تختلط صعوبته بفرحته!

جالس وحيد في مطار الكويت في الواحدة صباحًا (كما يقولونها بالرغم من اكتساء السماء بسواد الظلمة) أمامك ساعة ونصف حتى موعد دخول الطائرة.

وقت طويل أمامك، وهدف كبير في انتظارك.

الشوق يَزيد الانتظار صعوبة؛ ولكن تلك الصعوبة ممزوجة بفرحة مزجًا يشابه مزج القهوة الباردة بشوكولاتة النوتيلا التي كنت أحتسيها للمساعدة في مرور الوقت.

جاء موعد دخول الطائرة،

وجلست في كرسيِّ الأثير الذي حجزته مخصوصًا؛ حتى أريح ظهري في الرحلة الطويلة

جلس بجانبي شاب تركي لطيف، وما إن بدأت الطائرة في الصعود باتجاه السماء معلنة وجهتها نحو مطار صبيحة في رحلة كان معظم روادها أتراك وكويتيين.

كان الليل يُخيّم على الأجواء

بعد أربع ساعات هبطت الطائرة بمطار (إسطنبول) في شطرها الأسيوي المُسمى باسم (بنت أتاتورك) بالتبني صبيحة جوكشن، التي عرفت أنها أول طيارة تركية أيضًا.

في المطار صباحًا ما زال هناك وقت يدنو من أربع ساعات.

مشيت تجاه الصالة حتى قابلتني موظفة المطار بوجه عبوس تسألني عن تذكرة الوجهة المقبلة لم أعرها اهتمامًا نظرًا إلى عبوسها المرير الذي تخطى وجهًا وأحاط المكان بكآبة المنظر..

كنت أحمل صورة عن التذكرة الأخرى بمحفظة جوالي؛ لكن لم أتذكر حينها فردتُ عليها ليست معي هي على البريد الخاص بي، ولكِن ليس لديكم خدمة إنترنت مجانية لأحملها لَك

فأرشدتني إلى مكتب أطبع فيه التذكرة برقم جوازي، وفعلت وعدت لها سمحت لي بالمرور حتى صعدت إلى صالات الانتظار.

بدأت بالبحث عن المِصلَّى لأصلي الفجر، ولما اهتديت له صليت، وحاولت النوم ولو ساعة من الساعات الأربع المتبقية متجاهلًا كل إرشادات عدم النوم في المسجد مقلدًا باقي المصلين في عدم الاكتراث لها.

لكن لشيء ما لم أستطع النوم، ولا أدري هل سببه الشغف بالرحلة المرجوة، أم عدم ارتياحي للنوم على سجاد رقيق يكسو أرضًا صلبة.

بكل الأحوال بعد دقائق قررت استكشاف المكان بصالاته وأماكن الطعام ومحلات السوق الحرة وحتى حماماتها.

بعد وقت يسير بين مشي وهرولة شعرت بالجوع، ولكن لم يكن هناك مطاعم كثيرة لأنتقي منها ما أحب، فبين قائمة مطاعم "الفرانشايز" ومطعم تركي يصنع كفتة وأرزًا، حسبته مطعمًا وطنًيا وطلبت منه طبقًا أسد به جوعي، فلا أدري بعد الوصول هل أستطيع الأكل أم أتحول إلى تناول الفواكه.

بعد تناول الوجبة التي كانت مُرضية إلى حد ما، شعرت بالنعاس فلم أجد بدًّا من الذهاب إلى ستاربكس لتناول كوب من القهوة "الأمريكانو" علَّها تنجدني كعادتها وكانت على العهد بيننا.

بعد الذهاب والمجيء بين أروقة المطار في حدود الأماكن المسموح لي باقتحامها بقي على موعد الطائرة الثانية ما يقرب من ساعة ونصف.

بحثت عن صالة الانتظار الخاصة بطائرتي في اللوحة المعلقة لهذه الأغراض.

ذهبت إليها بعد مدة قليلة فوجدتها مزدحمة بأُناس معظمهم رجال يربطون رؤوسهم بقطن وشاش، ولأني أصبحت أكثر خبرة بتركيا فعلمت أن هؤلاء الناس جاؤوا تركيا لإجراء عمليات زراعة شعر حيث المكان الأرخص والأفضل.

وأنا أقف في الصالة صادفني شخص لبناني تعرَّف إليَّ كُوني عربي، وتكلمنا عن سبب الزيارة فحدثني عن أنه ذاهب للدراسة هُناك، وحدثته أني ذاهب للسياحة، وسألني عن وجهتي فأخبرته أني سأمكث في مَدرِيد مدة يوم، ثم أذهب إلى إشبيلية فقرطبة مرورًا بغرناطة، ثم العودة لمَدرِيد يومين ومنها إلى إيطاليا.

استدرك الشاب على كلامي بأن إسبانيا بلد بها كثير من الآثار الإسلامية، فمن ثم هذا سبب زيارتك لها.

أجبته بكُل صراحة أن تلك رحلة العمر لي، وأنا أحب الأندلس منذ زمن، وأهوى لقياها ولعلَّها تشتاق لي كما أشتاق لها.

على الرغم من كونه مسيحيًّا فإن الحديث عن تاريخ الأندلس كان سهلًا ومُنسابًا لم يُعرقله خجل مني أو تذمُر منه.

بعد فترة ليست بالطويلة بدأنا بالاصطفاف لدخول الطائرة، وجاءت إحدى المسؤولات عن المتابعة تسالني عن تذكرة العودة، فكانت الإجابة نفسها موجودة على بريدي فإن أردتِ الحصول عليها إما توصيل إنترنت بجهازي، وإما البحث عنها بطريقة لا أعرفها.

وهُنا كنت أستغرب نفسي، وأنا شخص هادئ يميل لتسير الأمور بسلاسة دون تعقيدات لماذا أجيب بتلك الطريقة غير العادية.

المهم سألتني جوازي وبحثت برقمه عن تذاكر العودة، وأعادته لي وجهزت نفسي لدخول الطائرة متساءلًا لماذا أنا؟

كنت الوحيد على متنِ تلك الطائرة فيما بدا لي السائح العربي، ومعي اللبناني حامل تأشيرة الدراسة والباقي من أبناء "قشتالة" و"ليون".

هكذا حاولت إقناع نفسي أني كنت أمام إجراء يخضع له كل السُّياح؛ لكن لم يكُن هناك غيري فلم يخضع له أحد إلا أنا ولعلَّ مختفيًا هنا أو هُناك خضع له.

لم أسمح لتلك التساؤلات أن تضيق عليَّ فرحتي بقربي من بلاد طالما حلمت الدخول إليها

فمجرد دخولي الطائرة يعني أربع ساعات حتى مَدرِيد وبعدها ساعة للسكن ونوم ويقظة ثم الذهاب لإشبيلية حيث المُعتمد وبني عباد.

وأنا أدخل الطائرة قابلت الشاب اللبناني، وسلم عليَّ وعرفني لأحد الأسبان فسألني الإسباني عن بلدي فقلتُ له: "إيجيبت" فأبدى عدم انتباهه للكلمة فاستدرك اللبناني بـ: "إيخيبتو".

دخلنا الطائرة ومضى كل مِنَّا في مكانه.

جلست على الكرسي المخصص لي، وبدأت في قراءة رواية عن الأندلس (جارة الوادي)، وبعد دقائق جاءت سيدتان وحيتاني بتحيَّة الأسبان: "هولا"، فرددت عليهم بالكلمة نفسها.

بعد جلوسهما سألتهما: من أين أنتما بإسبانيا، فقالتا: مَدرِيد، وسألتاني عن بلدي فقلت : "إيجيبت" وكررتها مرة أخرى فقالت: نعم "إيخيبتو".

سألتاني: أين تذهب في أسبانيا للسياحة – هكذا يبدو عليَّ – فقلت لها برنامجي بإيجاز شديد فنظرت لي وقالت: "أندلوسيا".

وبدأت الطائرة في المسير نحو "باراخاس".

لم يكُن في الطريق شيئًا يستحق الانتباه؛ سوى أن وجهتي تدنو أكثر فأكثر.

نمت شيئًا يسيرًا وللصدق كانت غفوة وليس نومًا.

مضى الوقت دون جديد حتى دنت الطائرة من الهبوط، وبدأت سماء مَدرِيد تبعد، وأرضها تدنو شيئًا فشيئًا تبدو لك البيوت المسقوفة بالقرميد ثم الطرق فالسيارات فأرض الهبوط.

هبطت الطائرة على أرض مطار مَدرِيد المعروف بـ"باراخاس"، وما إن استقرت الطائرة حتى بدأ الناس في القيام والتحضير؛ للخروج من الطائرة متجاهلين -كما هي العادة- التعليمات بالسكون حتى تمام الاستواء.

تحركت من الطائرة صوب مكتب الجوازات، وببساطة شديدة كان المرور من المكتب، والذهاب لمكان الحقائب، والخروج من المطار.

لم يكن لدي أي وسيلة للإنترنت إلا الخاص بالمطار المجاني لكن التعب ألم بي خاصةً عندما عرفت أن أجرة التاكسي من المطار للسكن (30 يورو) هي غالية لكنها كانت أرخص مما أظنُّ؛ فذهبت خارج المطار دون البحث عن كيفية الوصول للسكن باستخدام المواصلات العامة أو الخرائط غير الموصلة.

ذهبت إلى أول تاكسي وجدته وسألت الرجل عن الأجرة –زيادة في الاحتياط– فأجابني:

30 يورو، العنوان الذي التقطه بالماسح الضوئي لكاميرا جوالة، دون أن ألاحظ ذلك

بدأ الرجل في المسير، وأنا لا أدري كيف حفظ العنوان بتلك السرعة.

ذهب الرجل عابرًا الكباري والأنفاق، ومجتازًا البيوت والبنايات، وبعد وقت قليل وقف أمام بناية تشبه البيت الذي يفترض به سكني وقال: وصلنا..

أعطيته (100 يورو) فقال: ليس معي باقي، فدفعت بالبطاقة البنكية.

وقفت أمام البيت ليس معي أي وسيلة للاتصال، وأنا أثق تمامًا أن هذه البناية مكان سكني المفترض؛ لكن كيف الصعود والأبواب موصدة ولا تفتح إلا لحامل المفتاح أو من الداخل.

لم يكن هناك بد من البحث أولًا عن وسيلة للاتصال التي ستأخذها الآن أو بعد قليل.

مرَّ شاب يبدو في عمري أو أصغر قليلًا يمتلأ وجهه بالثقوب القوطية المملوءة بحلقان وأساور، ويمسك في يده قرطاس مليء بنقانق.

بوجه يخفي امتعاضه سألته عن: "فودافون"، فلم يعرف.

مشيت باتجاه الشارع العمومي، وعند ناصيته سألت أحد المارة الذي اتضح أنه بلجيكي الجنسية عن محل "فودافون" أو "أورانج"، فدلني عليه وكان عليَّ أن أمشي مسافة قليلة يبعدها عني جر الحقيبة.

ذهبت للمحل المطلوب فوجدته يتبع "لفودافون"، وبه شاب لطيف يدعى "داني"، ومعه فتاتان تعملان في المحل نفسه.

حييته بتحية الأسبان؛ ثم أسرعت بالإنجليزية أسأله عن خط يناسبني مدة أسبوعين؛ فدلني على المتاح وقيمته (30 يورو)، وكانت مناسبة لحد كبير، وتتيح لي استخدامها داخل منطقة "الشنجن" كلها ودفعت عن طريق بطاقتي البنكية.

سألت الفتى عن اسمه فقال: "داني"، قلتُ له لكنه ترك برشلونة: نعم لكني مدريدي -إشارة لداني ألفيش- وقال أن اسمه "دانييل"، ولكن يُقال له "داني" وكذلك (داني ألفيش) اسمه "دانييل".

لما وجدت الكلام بيننا وديًّا ولطيفًا، سألته: هل هناك مسجد قريب؟ بعد تفكير لبرهة قال: لا أظنُّ أو بالأحرى لا أعرف رددت عليه برد المنكسرين: ليس هناك مسجد في مَدرِيد كلها؟!

ويجول في بالي تلك الأرض التي بناها أمير مسلم، واسمها مشتق من العربية ليس بها مسجد!

لكن سارعني الفتى بأن مَدرِيد بها مساجد كثيرة، ولكن هُنا لا يوجد.

شغَّل "داني" الخط، وتأكدت تمامًا من أنه يعمل ثم رجعت نفس الخطوات للبيت، وهُنا اتصلت بالسيدة التي حجزت منها الغرفة لأقول لها أني أسفل المنزل وأريد الصعود.

أبلغتني أنها تسكن في مكان آخر، والباب سيفتح الآن، وما عليك إلا أن تصعد للدور الثاني وتطرق الباب، وستفتح لك الباب سيدة -أمها- وتعطيك المفتاح.

اتبعت التعليمات، ورحبت بي السيدة الكبيرة، وأرشدتني إلى الغرفة والحمام الخاص بي.

وضعت أغراضي كلها وصليت الظهر والعصر ركعتين تلو الأخرتين وذهبت للنوم.

وبعد دقائق حدثتني نفسي أن أتحرك لأي مكان، ولا داعي للنوم الذي يأبى أن يأتي.

بعد ربع ساعة مستلقيًا على السرير أخرجت هاتفي.

ثم بحثت في جوجل ماب عن كلمة مسجد، وفي ذلك الحين سمعت صوت لشاب خارج الغرفة يتكلم مع السيدة فعلمت أن الرجل يسأل عني، وبعد ثوانٍ قليلة طرق الباب؛ ففتحت له ورحب بي وسألني عما إن كنت أحتاج شيئًا.

رأيت الخريطة توضح لي أن أقرب مسجد يحتاج إلى قرابة نصف ساعة حتى تصل إليه.

غيرت ملابسي ونزلت متبعًا تعليمات التطبيق ذاهبًا نحو المترو، وهنا ظهرت أول مشكلة وهي أن الولوج إلى المترو يستلزم كارت مواصلات كما حال إسطنبول.

لم استطع التعامل مع ماكينة شراء الكروت؛ فطلبت من مسؤولة داخل المحطة أن تساعدني وعلى غير أولئك الإسبان الذين قابلتهم على مدار ثمانِ ساعات كانت غير ودودة على أية حال.

أعطيت للسيدة الـ(100 يورو) الحائرة التي لا يقبلها أحد كأنها مبلغ كبير لا يحمل أحدهم ما تبقى منه لثمن الخدمة.

رفضت السيدة المبلغ لأن ليس لديها الباقي؛ فدفعت كما اعتدت بالبطاقة البنكية.

أخذت منها كارت المواصلات الذي يكفي لـعشر مرات بـ12.5 يورو.

ركبت المترو باتَّجاه المحطة المرجوة ونزلت كما يقول التطبيق.

واتبعت مسير الأقدام محاولًا ألا أخطئ الاتجاه حتى وصلت لنهاية المكان؛ لكني لم أجد مسجدًا بدأت في النظر واللف حول المكان؛ لأرى أين ذلك المسجد فلم أرى شيئًا.

مشيت يمينًا وشمالًا.

وقفت أمام المسجد المجهول انتظر أي علامة؛ فلم يكن المكان يدل على شيء سوى أنه بيوت من أدوار قليلة، وفي المقابل هناك حضانة أطفال وأمهات تدخل ثم تخرج بطفلها.

مؤكد أن المسجد هنا في مكان ما.

لكن أين تلك الما التي فيها المكان؟

بعد خيبة أمل عدة دقائق، أدرت وجهي للبيت الذي خلفي؛ فوجدت بابًا شبه مغلق ودقيقة بعدها جاء شاب أفريقي يرتدي جلباب فسألته: هنا المسجد فقال: نعم.

نظرت للباب وجدت مكتوب عليه بقلم تلوين مسجد الهدى -إن كنت أتذكر اسمه-

وإلا فمسجد ....

دخلت المسجد، وجلست حتى أتى شاب آخر، وكان يتبقى على الصلاة قرابة ربع ساعة فبدأ أحدهم بتلاوة القرآن كما تحب أن تسمعه.

وبعد وقت قليل تعارفت عليهما وعرفت أنهما من السنغال فقلت لهم: أنا مصري، نحن في ليفربول محمد صلاح وساديو ماني فقالوا: نعم، نحن نعلم ساديو ماني هو سنغالي فقلت في نفسي لا تطل تلك الدعابة السخيفة ورحب بهم فقط وقبل الأذان بدقيقة حضر إمام المسجد فاستأذنته أن أسجل الأذان فقال:

حان وقت الأذان فقال لي الإمام: تفضل.

قلت له: ماذا .....

قال: تفضل، ألست تريد أن تؤذن؟!

في بضع ثواني، قُلتُ له في نفسي: أريد أن أُسمع أصدقائي نداء الإسلام في أرض الإسلام فقط لكن ذلك النداء يقوله أهله ولست منهم، غير أن الفرحة أخذتني، وذهبت للأذان بفرحة لم أكن أعلمها حتى ذقتها.

بعد 10 دقائق، حانت الصلاة مغرب ثلاثٍ يتبعها اثنان للعشاء، فرغت منهما ثم شكرت الإمام على تلك الفرصة العظيمة، وشكرت الله على وجود ذلك المسجد الذي لا يعلن عن نفسه.

خرجت من المسجد، وبحثت في جوجل ماب عن مطاعم حلال فأرشدني لركوب أتوبيس ومن ثم النزول في محطة ما اكتشفت بعد ذلك أنها بجانب سكني، وبجانب محطة القطارات أيضًا.

نزلت في المكان المحدد حتى رأيت لافتة كبيرة مكتوب عليها مطعم حلال تركي.

كان يقدم الشاورما والفراخ المقلية؛ فعدَّ نفسه تركيًّا على ما يبدو على الرغم من صاحبه كما بدا عليه بنغالي الجنسية.

دخلت المطعم، وطلبت منه طبق شاورما مع البطاطس أو البطاطا وعلبة مياه غازية فانتا بطعم البرتقال وهُنا كانت المفاجأة أن المياه الغازية تلك لم تكن مجرد بطعم البرتقال؛ بل كانت كأنها عصير برتقال عليه المادة الغازية، فكانت أروع ما شربت من تلك المشروبات.

بعد أن فرغت من الطعام، عرضت على الرجل الـ(100 يورو) الحائرة، وأما بطاقة البنك غير أني كنت أعلم أن ليس لديه ماكينة دفع آلي فأخذ الورقة ثم أعطاني الباقي.

خرجت من المحل، ولا أدري أين أذهب.

فما أعرفه في مَدرِيد قليل، ومعظمه لا يصلح إذ إن الوقت متأخر.

فكتبت على تطبيق أوبر (بلازا دي إسبانيا).

وقررت أن أذهب إلى هذا الميدان، ربما يكون مسليًا ولعلِّي أرى شيئًا جديدًا.

فجاءني بعد قليل السيارة التابعة لذلك التطبيق، ورحب بي سائقها وتبادلنا الحديث الذي كان وديًّا ومتوافقًا لأقصى درجة.

سألني: من أي البلاد؟

فقلتُ: "إيخيبتو" (مصر).

فسأل: ومتى أتيت؟ أجبته: اليوم، وسألني عن برنامجي فشرحته له بالتفصيل ثم قال ......

قال: إن إسبانيا تحتوى على عديد من الحضارات (مسيحية ومسلمة ويهودية) وأردفت: وقوطية.

ثم سألني: لماذا حدث في إسبانيا كل هذا؟ هل كان يجب طرد المسلمين؟ ألم نكن نعيش معًا مسلمون ومسيحيون ويهود؟!

قلتُ له: اسأل إيزابيلا ولا تسألني، أنا مسلم من المظلومين والطارد منكم.

ربما لم يجد الرجل إجابة أو ربما وجد ما هو أهم، فأشار إلى بنك إسبانيا وقال: هذا البنك يتبع المسلسل، هل شاهدته؟ قلتُ: نعم؛ لكنه قال: هذا هو البنك؛ لكن التصوير لم يكن هُنا، وهذا يبدو منطقيًّا، لأن الشارع ليس عريضًا بما يكفي لتدور فيه تلك الأحداث، وما تخللها من "البيلا تشاو".

وبعد قليل أشار إلى متجر ملابس يدعى (بريمارك)، وقال: رخيص جدًّا بما يكفي لتتسوق فيه؛

لكني سألته عن مركز سك العملة لكنه لم يفهمني.

ثواني قليلة ووصلت (لبلازا دي إسبانيا، لكنه قال لي: أنَّ القصر الملكي قريب فأنزلني عنده

لم أرى منه شيئًا، وبدا كئيبًا في وسط الظلام النسبي.

عدت ناحية "بلازا دي أسبانيا" (ميدان إسبانيا)، ومكثت فيه قليلًا، واتخذت خط سيري عكس اتِّجاه المجيء فصعدت إلى متجر (بريمارك)، غير أني لم أتي هنا للتسوق فلم أمكث طويلًا، ولم أشتري شيئًا.

ثم ذهبت لميدان (كاياو) حيث إلقاء النقود من المناطيد، ورأيت هناك مطعمًا عربيًّا يسمى بـ"القدس" غير أنه لم يكن هناك مجال لتجربته.

تابعت المسير حتى بنك إسبانيا ثم ارتحت بمحطة الحافلات القريبة منه، وبعد قليل بالقرب من مبنى البلدية كانت هناك مظاهرة مكونة من عشرات أو ربما أكثر من مئة بقليل.

سألت سيدة تجلس بجانبي عن تلك المظاهرة فقالت: احتجاج.

فقلتُ: عن ماذا، فلم تجب.

كنت أعلم أن هناك احتجاجات بمناسبة تشكيل الحكومة؛ لكن لم أشأ أن اقترب لجهلي إذا ما كان المحتجون من اليمينيين أو أهل الوسط المتعايشين.

بعد قليل لم نرَ لها أثرًا.

ركبت الحافلة عائدًا إلى لمنزل، لكن بعد قليل آثرت التمشية، ونزلت من الأتوبيس، وذهبت إلى المنزل ماشيًا، وأنا أتحدث مع أحد أصدقائي.

وهكذا انتهى يومي الأول بمَدرِيد، واستعددت للذهاب غدًا إلى عروس الأندلس (إشبيلية).

إشبيلية

مدينة بني عباد والموحدين.

مدينة ابن زيدون وأحمد شوقي، المعتمد وابن عمار.

الخالدة المعروفة بالجيرالدة منارة الموحدين ملتصقة بمسجد المدينة المتحول.

قصر المورق ...... أنقاض بني عباد.

برج الذهب يراقب الوادي الكبير.

والوادي نفسه يشق المدينة شاهدًا على حب محمد بن عباد المعتمد لصفية روحه اعتماد جارية الرميك في مرج الفضة.

ولكن أين ذاك المرج؟

حسنًا، اختر أي مكان على ضفة النهر وكأن اللقاء هناك.

نادي إشبيلية وكانوتية والمسجد الشاهد على حب الرجل لدينه وبذله المال.

عاصمة الأندلس أو كما يجب أن أقول عاصمة أندلوسيا.

وغير ذلك كثير من المشاعر مما لا يحويه قلب، ولا يسعه عقل.

ذهبت قبل موعد القطار بساعة من مقر سكني بمَدرِيد بعد يوم سابق حافل بمشاهدة أوروبا الغربية لأول مرة بعمرانها.

المسافة إلى محطة القطار تحتاج إلى 10 دقائق، أعطيت نفسي 50 دقيقة إضافية تحسبًا لمفاجآت لن تحدث؛ لكن يجب أخذها في الحسبان.

دخلت المحطة، التي تدعى "أطوشا" حاملًا معي زجاجة مياه، وجدتها أقرب إلى أن تكون سوقًا مركزيًّا بسيطًا به مطاعم مشهورة، ولأنه يجب الحذر فلتضغط على جوعك فلا تدري ما تحويه شطيرة البرغر.

سألت عن القطار في الاستعلامات، وأرشدتني الموظفة إلى الرصيف المخصص للقطار.

وانتظرت حتى فتح الرصيف، وذهبت إلى مكاني المحجوز، وأنا مدهوش بشكل القطار مستعيدًا، ذكرياتي مع قطار الإسكندرية - القاهرة الذي لا يشبه فيما رأيت أي شيء باستثناء أن الاثنين يصلان في المدة الزمنية نفسها، فالقطار من الإسكندرية للقاهرة يصل في ساعتين ونصف قاطعًا ما يزيد على مائتي كيلو متر وفي المدة نفسها يصل قطار مَدرِيد إشبيلية لكنه يقطع خمسمئة كيلو متر.

جلس بجانبي رجل تبدو عليه علامات صغر السن، تحدثت معه قليلًا عن إذا ما كان يعمل أو يدرس؛ فأخبرني باقتضاب أنه يعمل وآثرت السلامة، وألا يعكر صفو رحلتي ابتسامة صفراء منه أو تساؤل عن سبب أسئلتي فقررت ألا أسمح لفضولي أن يتجاوز هذا السؤال.

جاءت مضيفة، وأعطت كل منا سماعة أذن حتى نستخدمها في تضييع وقت الرحلة الطويل.

وانطلق القطار، وانطلق وانطلق.

حتى خرج من مَدرِيد متجاوزًا طليطلة.

ومشى القطار متوسطًا مرتفعات "لامانشا" ومع كل تلة يمر بها العين ترتفع، والقلب يهبط

فارتفاع العين لملاحظة القمم، وهبوط القلب لقرب اللقاء.

مرتفعات تمر ومعها أرض تبدو مزارع، وطواحين هواء وأشياء أخرى لم تسع الذاكرة حفظها.

وبعد مدة ليست بالقليلة وقف القطار بقرطبة إيذانًا بوقوف القلب عدة دقائق؛ حدادًا على مهوى الروح والفؤاد.

استكمل القطار وجهته حتى دخل محطة إشبيلية الرئيسية المسماة (بسانتا خوستا).

نزلت من القطار مستشعرًا روح المعتمد بن عباد -ملك إشبيلية المخلوع- الذي كان ملء السمع والبصر في مجد مملكته، وظل ملء السمع والبصر في محنته، وظل ملء السمع والبصر حتى في قبره بعد مئات الكيلومترات من إشبيلية.

قبل خروجي من محطة القطار؛ بحثت عن مكان الغرفة التي استأجرتها عن طريق الجوجل ماب كما يفعل كل البشر.

ومشيت متبعًا خطواته كما وجهني مستغربًا المدة التي يفترضها للوصول؛ كأنه يتوهم أن الباحثين عن المكان عداؤون يخطون خطواتهم ثابتين لا

يتأملون الأماكن التي يرونها فضلًا عن توهمهم بالانبهار بما رأوه أول مرة من مبانٍ وأُناس.

بعد عدة دقائق زائدة عن المدة المفترضة للوصول، وصلت مكان سكني الذي تفاجأت به في بيت يبدو أنه بُنيَّ على الطراز العربي أو دعنا نقول أنه بُنيَّ على طراز الأندلسيين قبل الطرد.

وهو بيت يشبه كل البيوت هناك في تلك المنطقة التي تُسمى (سان خوليان) كما أظهرها موجه الأماكن في كاميرا الموبايل.

لا أدري منذ كثير السنين وأنا عندي تساؤل ما سر الأسبان؟ وغيرهم قليل من اللغات في حرف الخاء وهو الحرف الشديد على النطق الخارج من جوف الحلق، وكيف لأوروبا في معظمها تعجز عنه عدا الألمان والأسبان.

لماذا هو (سيرجيو وأنجل) في الإنجليزية وفي العربية أيضًا لكنه بالإسبانية "سيرخيو وأنخل".

تساؤلات تمر مع غيرها من تشابه الكلمات بين العربية والإسبانية، وهل هذا ناتج عن مكوث أهل العربية كثيرًا أم لا؟!

تذكرت جارًا لي روماني الجنسية حين حدثني عن ذهابه إلى صديق لتناول الحساء المعروف بالشوربة وقال لي:

"I take soup but we called it in Romania shourba"

قلت له: نقولها نحن أيضًا كذلك.

تذكرت كثيرًا من التشابه بين القميص "وألكاميسا" والزيتون "وأثيتونا" وغيرها وغيرها

لم تكن تلك التساؤلات وليدة تلك اللحظة؛ بل على مدار الرحلة كلها ومرَّ بذهني أيضًا لماذا هناك لغتين برتغالية وإسبانية ولكنات داخل الإسبانية بين باسكية ولاتينية وكتالونية وجاليسية؟

تساؤلات تأتي لك من حيث لا تدري، وحيث لا ترغب أن تبادر ذهنك بتفكير حين لا ينبغي لك أن تفكر.

ولنترك التساؤلات تعبث وحدها، ونعود ثانيةً أمام باب البيت المؤجرة فيه غرفة السكن.

أخذت المفاتيح المتروكة بأحد الخزائن على باب البيت، وفتحت باب المنزل لأُفاجأ أمامي بفناء كبير على شكل مستطيل تحيطه شقق صغيرة غالب سكانها من كبيري السن كانت تشبه إلى حد كبير البيوت التي كانت تظهر بباب الحارة والمسلسلات السورية التي توصف البيئة الشامية، ولعلَّها تشبه بيوتًا في القاهرة وبغداد لكن المؤكد التشابه بينها وبين المغرب العربي.

ومزروع على كلا جانبيه شجر برتقال.

دخلت غرفتي فوجدتها ضيقة بعض الشيء، لكنها جيدة في المجمل.

ماذا أريد من الغرفة سوى أن يكون بها سرير جيد، وموصلات كهرباء، وحمام خاص أضف إلى ذلك خزانة ملابس لم أستخدمها، ومنضدة وضعت بها عدة أغراض.

صليت الظهر والعصر وبعد راحة ليست بالطويلة تقل عن الساعة بكثير، أخذت حقيبة الظهر واضعًا بها (جاكيت خفيف) تحسبًا لبرودة قد تأتي من حيث أدري، وحيث لا أدري فأثقلت ظهري دونما داعٍ.

ذهبت مستعينًا بجوجل ماب إلى الجيرالدة منارة الموحدين.

وقد وصف لي الطريق مخترقًا البيوت القديمة بإشبيلية، التي أطلقت عليها عنوة (الحي العربي) لا أدري للتشابه بينها وبين ما أشرت إليه في أعلى أم لأن الحنين لأصل البلاد العربي كان يطغى عليَّ أو ربما الحل الأقرب لقلبي لتلك المعضلة أنه فعلًا حي عربي رمم على أصول أنقاضه العربي متخذًا؛ الشكل القديم محافظًا على هوية الروح، وشيئًا من الشكل الذي تغطي معظمه بصلبان الكاثوليك.

وفي الطريق إلى منارة الموحدين أعرضت سمعي عن سماع أجراس الكنائس تدق من كل مكان، ولأني لست متعمقًا في دراسة الأديان وشعائرها لم أدر ما سر تلك الأجراس، وكأن جيوش قشتالة قد فتحت لتوها أشبيلية.

تخيلت تلك البيوت كانت لأجدادنا السابقين؛ فصرت أسأل نفسي أين كان ابن زيدون وأين كان ابن عمار وأين كان أبطال رواية جارة الوادي التي بدأت قرأتها.

لم تكن تلك التساؤلات للحنين؛ بقدر ما كانت للصد عن صدمة الأجراس والأيقونات التي تحاول محو أي صلة لتلك المدينة بعهد قبل عهد قشتالة.

كلما اقتربت من المكان المرجو زاد الضجيج، وبقدر ما يثير انتباهي بقدر ما يلفت نظر الناس حول هذا الشخص المنتبه لما يحدث حوله.

قابلت الناس حولي، وقابلوني بابتسامة غرضها أهلًا بك في أندلوسيا من جانبهم، وغرضي لا يحل المسلم ضيفًا في بلاد الإسلام.

تداخل الضجيج مع ضجيج نتج عن صهيل أحصنة آت من بعيد.

وفجأة نظرت إلى أعلى.

هالني منظرها.

هذه هي الجيرالدة لكنها بالإنجليزية النطق الصحيح لها "خيرالدة" مع تخفيف الخاء لتصل قرب الهاء.

لست من مجيدي علم الصوتيات، ومخارج الحروف.

فأرحت نفسي ونطقتها الخالدة، كما تهيأ لي أنها كانت تنطق وقت الموحدين كما هي حاليًا خالدة في وجه الممالك والأديان صامدة في وجه التغيير.

يعلوها هلال أو جرس وصليب ستظل واقفة تحكي الأندلس.

ستظل شامخة تحكي أصلها مِئذنة المسجد؛ حتى لو لم يكن هناك مسجد ولم تكن هي المِئذنة

لكنها تحتضنه كأنها تحتمي به من العهد الآخر لكن سيوف قشتالة كانت أعلى من كل شيء.

حين تقف أمام مكان أول مرة، عليك أن تتذكر كل مشاعرك تجاه هذا المكان

تذكرت حينها جملة من أغنية نادي إشبيلية تقول:

La Giralda presume orgullosa
De ver al Sevilla en el Sánchez Pizjuán

وتعني أن الخيرالدة تقف بفخر ناظرة إلى نادي إشبيلية في ملعب (رامون سانشيز بيخوان)

الغريب أن تلك كانت في (2005)، ولم يكن لنادي إشبيلية في ذلك الوقت بطولات إلا دوري واحد وكأس إسبانيا 3 مرات، وعدة بطولات محلية عن إقليم أندلوسيا.

لكن يبدو أن مِئذنة المسلمين قد نظرت ببركتها على النادي الإشبيلي؛ فصار بطل للدوري الأوروبي خمس مرات حينها زادوا لستة بعد ذلك.

سألت عن تذكرة لصعود تلك المنارة أو المِئذنة أو الخيرالدة أو أيًا ما كانت.

فعلمت أن التذكرة مدمجة معها زيارة الكاتدرائية فلم أشأ أن أزور المسجد لأمسح دموعه.

وأسليه عن فقدان زمن كانت مِئذنته تحتضنه بنداء التكبير، فأتت الأجراس لتنهي ذلك.

الصبر عن الصدمة الأولى، والصمود في مواجهة الصدمات.

كان عليك بوصفي شخصًا راشدًا عاقلًا بلغت مبلغ العقل أن تعرف أين أنت من حيث الواقع لا من حيث التمني.

أنت الآن في إشبيلية عاصمة إقليم الأندلس صاحب الـ 90 % من سكانه أو أكثر إسبان كاثوليك لست في عاصمة بني عباد أو الموحدين.

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر.

جلست على أريكة بجوار المِئذنة مستأذنًا شريكتي فيها؛ موضحًا هويتي حتى تبدي رأيها إن كانت لا ترغب أن يشاركها الجلوس أحد أبناء "المورو".

بعد فترة قليلة من النظر إلى المِئذنة، وبجوارها حناطير الخيول لتأخذ السائحين جولة حول آثار مسروقة من أصحابها، ومنزوعة من أصلها قررت التمشي قليلًا حول المكان؛ فشاهدت المطاعم التي تزين نفسها بأفخاد الخنازير في منظر تشمئز منه الروح قبل العين، وتماثيل القديسين المصغرة هدايا تذكارية تملأ المكان في منظر لم أعتده قبل ذلك.

فوجدت محل يبيع الجيلاتي وبه رجل يبدو ودودًا سألته بكم تلك العلبة فقال لي: 5 يورو.

قُلتُ في سري: وحياة أمك، ليه ده أنا في الكويت أشتري بالخمسة يورو دي علبة أكل فيها يومين.

المهم قُلتُ له: أريد علبة من اللي ب 7 يورو -أهه خسارة بخسارة- وأردفت متحدثًا.

أنت تبدو رجلًا ودودًا وأنا عليَّ أن أصارحك بشيء، أنا مسلم ولا يحل لي تناول أشياء معينة.

فهل تحوي تلك مكسبات الطعم شيئًا من خمور أو جيلاتين فقال لي:

قُلتُ له: وأنا أثق بك.

أكلتها وقررت أن أغادر المكان، والذهاب إلى مسجد ما لأصلي المغرب والعشاء.

بحثت عن أقرب مسجد فقال: 15 دقيقة مشيًا، مما يعني أنه عليك أن تمشي فوق ال20 دقيقة لتصل وجهتك.

وصلت متأخرًا إلى المكان حتى وجدني رجل مغربي قال لي: تبحث عن المسجد فقلت : نعم، فدلني عليه دخلت المسجد رأيت به مجموعة علمت بعد ذلك أنهم مغاربة والإمام إسباني صلينا المغرب والعشاء، وجلست أنظر إلى تلك المجموعة، وهي تجلس في حلقة ذكر كما الصوفية بعد الانتهاء من أورادهم سألت عن وقت صلاة الجمعة فقالوا: غدًا الثالثة والنصف، أي قبل العصر بقليل وكان موعدي في القصر غدًا في الرابعة.

أول جمعة ضاعت مني كما ستضيع الثانية.

خرجت من المسجد، ووجدت خارجه رجلًا وأسرته من جمهوريات المسلمين جنوب روسيا،

وسألني الصلاة غدًا متأخرة فقلت : نعم؛ لن أستطيع الحضور.

يممت جوجل ماب نحو مطعم دلني عليه صديقي الذي سبقني لإشبيلية، فلما وصلت جاءتني فتاة جميلة الشكل، بريئة الملامح، تعمل نادلة داخل المطعم، وسألتني عن لغتي المفضلة للتكلم إسبانية أم إنجليزية، قلت لها:

إنجليزية، ومزحت: يا حبذا العربية، فقالت: جيد، أستطيع أن أتحدث العربية؛ أنا مغربية، قلت لها: وأنا مصري، لكني جئت من الكويت.

وبعد سؤال، وجواب، وود، وخطاب.

سألتني عما أرغب في أكله، وسألتها ما أستطيع أن أكله.

ولأني لا أعلم عن أكل المغاربة سوى أنه شهي.

فقررنا معًا أن أكل (طجين لحم).

وأنا أنتظر الطعام تجولت بعيني فوجدتني العربي الوحيد، وأم كلثوم تشدو بصوت خفيض والخمور توزع حتى من يد تلك الفتاة الجميلة.

لا بأس، أنت في إشبيلية.

جاء الطعام وقدمه لي فتى ودود فلسطيني الجنسية من غزة، تحدث معي أنه محاسب لكنه آثر الدراسات العليا فجاء هُنا ليتعلم.

بعد الانتهاء من الطعام جاءني الفتى، وسألني عن وسيلة الدفع فقلت : حبذا لو بكارت البنك،

وسألني: أيهما تفضل الدفع بالدينار أم اليورو، قلت : مش فارقة.

خرجت من المطعم مقررًا التوجه إلى مكان جديد على ثقافتي، فهو مكان يحمل الطابع الإسباني.

"بلازي دي إسبانيا" وهو مدرج بديع، لكن حتى تستمتع به عليك أن تزوره نهارًا لترى ملامحه واضحة، وتستمتع برحلة في المراكب بنهره الصناعي بين الطيور العائمة وسطه،

وتنظر لرسومات العصر الإسباني على جدرانه.

بعد وقت قليل، سئمت من ظلمة المكان فقفلت عائدًا لسكني معطيًا لنفسي قسطًا من الراحة ليوم غد.

خرجت في اليوم التالي من المنزل الذي أسكنه متتبعًا خطوات جوجل ماب فأخبرني أن الوجهة إلى اليسار.

يممت وجهي يسارًا مخترقًا الشوارع والبيوت، مشتت الفكر، مشغول البال، حزين على عدم توافق وقت الجمعة مع زيارة القصر.

وكان تلك الزيارة قد اخترت وقتها في الثالثة حتى أكون فرغت من صلاة الجمعة وتجولت بين الطرق مخترقًا الأزقة نحو القصر الملكي.

غير أني لم أكن أعرف أن الصلاة بعد الثالثة قبيل العصر؛ حتى يتسنى للعاملين العودة من أعمالهم.

توقفت للحظة باحثًا عن مسجد آخر على الجوجل ماب فأرشدني إلى مسجد آخر بعيد عن نقطة التمركز لرحلة اليوم.

وجدت في التطبيق رقم هاتف للاستفسارات، فكرت في الاتصال بهم لأعرف إذا ما كانوا يصلون مبكرًا حتى لو في الثانية ظهرًا.

لكن الوقت يشير للتاسعة، فهل هو وقت مناسب للاتصال.

لا بأس؛ فالناس حولك يملؤون الشوارع ربما يجيبون الاتصال.

ولكن هل تضمن أن المسجد لجالية عربية أم لإسبان مسلمين؟

هل تسعفك إنجليزيتك في مقابل إسبانيتهم، وأنت لست ماهرًا في الكلام.

تساؤلات انتهت في لحظتها.

اتصلت فرد عليَّ شخص بالعربية:

(السلام عليكم)..

وعليكم السلام، هل تستطيع التكلم بالعربية..

نعم، تفضل أخي..

سيدي أنا سائح جئت لإشبيلية، ووقتي مزدحم متى تقيمون صلاة الجمعة..

بعد الثالثة..

شكرًا، ولكن سؤال آخر هل هناك مسجد يقيم الجمعة قبل ذلك الموعد..

لا للأسف حتى يتسنى للناس العودة من أشغالهم والصلاة..

شكرًا لك..

تحول الأمل القريب إلى يأس طويل بطول الوادي الكبير، وهُنا تبدأ الحيرة.

فالخطة أصبحت لا تعمل، وعليك التضحية.

وهُنا أنا مسافر ليس عليَّ صلاة جمعة؛ إضافة إلى أنني أقصر صلاتي.

ولكن تلك الجمعة هل تضيع عليك صلاة الجمعة في دار الإسلام السابقة.

صراع يخبط أفكار الإنسان بين عزائم الأمور، ورخص الرحمن.

ولكن هل أقمت العزائم سابقًا حتى تأخذ بالرخص؟!

صلاة الجمعة من خطيب لم تره من قبل ولن تراه لاحقًا أمر جدير.

لكن حجز موعد القصر لن يتكرر على الأقل الآن ولا تدري أتعود.

قضي الأمر أنت مسافر ليس عليك صلاة جمعة فلا تبتئس.

إن ربك لغفور رحيم، ويحب أن تؤتى رخصه؛ لكن كانت نفسي تجهل هل كانت تلك رخص الله أم شهوات النفس؟

صارعتني نفسي قليلًا، ولم أكن للأمانة أدري هل ما كان يؤرقني النفس اللوامة أم وسوسة الشيطان الذي رُبما يريد أن ينغص عليك حياتك ورحلتك فتكره ما جئت لأجله بسبب تضييعك الفروض.

على الرغم من أنني درست فقه الصلاة على مذهب الدليل؛ فعلمت أن الصلاة تسقط عن المسافر فتمسكت، وعلمت أن الجمعة لا تجمع مع العصر؛ لأن الجمع ظهرًا وعصرًا.

ولكن هذا باختلاف الآراء، واختلاف الآراء يسهل للأمة أمورها.

ثم أن الجمعة قد سقطت عني، وأصبحت ظهرًا؛ لذا يحق لي جمع الظهر والعصر ركعتين وركعتين.

أكملت وجهتي تجاه زيارتي الأولى في هذا اليوم نهر الوادي الكبير؛ لأسير على ضفافه مستذكرًا أروع قصص حب الجزيرة.

وبالقرب من الهدف المرجو مررت بجانب بيوت مكونة من طابق واحد أو اثنين على الأكثر تبدو فلكلورية لعلَّها تحكي قصة ما من قصص إشبيلية عرفت حينها أن المكان يُسمى (ماكارينا)، وهالني الاسم مستذكرًا أغنية كنَّا صغار نسمع عنها بالاسم نفسه لكننا لم نكُن نفهم منها شيئًا.

أثار نفسي وجود عربة جوالة كتلك الموجودة في بلادنا تبيع بعض المكسرات.

سألت عن ثمن الكيس الصغير، ولم يثرني بهاظة الثمن؛ فتعلمت من ليلة أمس أن الحياة ليست كالتي عليها في الكويت أو مصر أو حتى إسطنبول.

أخذت كيس المكسرات المملحة، وتناولته مكملًا طريقي تجاه الوادي.

وصلت إلى الوادي الكبير.

نهر الوادي الكبير لم يكن مجرد نهر في الذاكرة الأندلسية.

كان النهر شاهدًا على عصر المسلمين في الأندلس، فمسجد قرطبة الجامع وقنطرتها يمران بها.

برج الذهب، وقطع الوادي الطريق حتى مصبه في المحيط الأطلسي.

كل هذا وشيء آخر.

المعتمد واعتماد.

كان ولي عهد مملكة إشبيلية (محمد بن عباد) يتجول مع صديقه ابن عمار متخفيًا على ضفاف النهر بمكان يُدعى مرج الفضة؛ فوجد الهواء يحرك ماء النهر فانعكس ضوء الشمس على الماء.

فقال لصاحبه: صنع الريح من الماء زرد، وطلب منه إكمال البيت.

تلعثم الشاعر المجيد (ابن عمار)، ولم ينبس بكلمة فسمع الرد حاضرًا من خلفه.

أي درع لقتال لو جمد.

نظر لمن قالت فوجد فاتنة تغسل ثيابًا في النهر، فسألها عن نفسها فقالت: إني خادمة الرميك واسمي اعتماد.

ذهب محمد لدار الرميك هذه -لا أدري لعلّي مررت بمكان داره في أثناء تجوالي- واشترى منه الفتاة التي فتنت روحه حتى تلقب بالمعتمد اشتقاقًا من اسمها.

هُنا انتهت القصة، وبدأت الحكاية.

حِكاية المُحبيّن والعُشّاق

لا يوجد شخص يذكر نهر الوادي الكبير إلا ويتذكر هذه القصة؛ على الرغم من أنك لا تعلم أين مرج الفضة؛ لكن تستطيع أن تستشعر تخفي المعتمد -محمد حينها- مشيًا في مكان على ضفة النهر لينسج حكاية من أجمل حكايات العشاق.

شغلت موشح جادك الغيث على مشغل (ساوند كلاود)، ولأنه يتابع تشغيل المقاطع الصوتية تنازليًّا أمضيت وقتي بين فيروز، وحمود الخضر؛ منتشيًا بغيث لن يجيء مشتاقًا لوصل مضى زمنه.

لستُ خبيرًا في القياسات والمساحة، وليس لدي أي تصور لمعرفة عرض الأشياء ومقارنتها مع الأخريات؛ فلم أستطع تمييز عرض الوادي ومقارنته مثلًا بنهر النيل أو غيره لكنه يبدو جيدًا للملاحة السياحية إن صح التعبير، ويبقى شاهدًا على جمال إشبيلية، ويمكن ممارسة الرياضات المائية فيه أيضًا كالتجديف، ورياضة تدعى (كاياك) تعتمد على تجديف بمجداف واحد ذي وجهين وسعة المركبة شخص واحد، وتتطلب هدوءًا نسبيًّا بحركة المياه لخفتها فالمناسب لها الأنهار أكثر من غيرها.

تابعت المشي حتى وصلت إلى محطة الحافلات الرئيسية تجاوزتها صعودًا على الرصيف، وواصلت المشي حتى بدا لي مرفأ نهري صغير بجانب برج الذهب، وموقف صغير لحافلات السياحة.

قابلتني فتاة تبدو كأنها تعمل في هيئة تنشيط السياحة، وخاطبتني بالإسبانية:

"Hola"

رددت عليها بـ:

"Hola Hermosa"

تابعت الحديث بابتسامة لا أدري أكانت للخجل أم الشكر وبإسبانية سألتني قاطعتها: هلا تحدثتِ بالإنجليزية؟

شرحت شرحًا مبسطًا لعرضها لي، وهو أن تلك الحافلة قيمة تذكرتها (20 يورو) تلف بك في معظم معالم إشبيلية، وتستطيع بتلك التذكرة الصعود والنزول على مدار يوم كامل يبدأ من لحظة دخولك الحافلة.

في الحقيقة كان العرض جيدًا، ومثيرًا للفضول فليست إشبيلية القصر، والمنارة، والبرج القابع أمامي، سألتها عن ذلك المرفأ الصغير فقالت: ذلك مرفأ لسفن سياحية تأخذك جولة داخل النهر مدة نصف ساعة أو ساعة، لا أتذكر؛ تتحرك السفينة كل نصف ساعة حتى السادسة مساءً آخر موعد.

بعد أخذ ورد طلبت منها تذكرة الباص؛ خاصة بعد أن أخبرتني أن هناك مسجلًا صوتيًّا يشرح لك المعالم المزارة باللغة العربية، ثم أرشدتني إلى ضبط الزر بجانب الكرسي على (رقم 15)

كنت بحاجة إلى الراحة أكثر من مشاهدة أحياء إشبيلية، صعدت الحافلة لطابقها العلوي، وجلست مسترخيًا ضبطت المسجل على (15) وبدأ الرجل يحكي قصة إشبيلية.

الوادي الكبير.

برج الذهب.

حي السيدة ماكارينا.

الضفة الأخرى من الوادي حيث بيوت أخرى تبدو أكثر رُقيًّا.

ميدان إسبانيا.

المسلتين الرومانيتين.

وغيرها كثير لم تسعفني ذاكرتي السمعية؛ لتذكر التفاصيل غير أن عيني لم تخطئ النظر لكن ما كان غريبًا عليَّ في تلك الرحلة أنه دخل في مناطق سكنية؛ لكنه لم يدخل منطقة (نيربيون)، حيث (رامون سانشيز بيخوان)، مقر النادي الأندلسي الأول وفخر إشبيلية.

فكرت قليلًا في النزول عند ميدان إسبانيا -بلازا دي إسبانيا- للحصول على ما فقدته ليلة أمس لكن إرهاق الجسم أنساني كل هذا؛ فالراحة أولى لأن التجول سيبدأ بعد مدة وعليك الاستعداد.

حان وقت أذان الظهر ليس هناك مكان أصلي به، وكعادة الناس يتحولون لفقهاء في اللحظات كما كنت باكرًا، انتظرت حتى دخلت الحافلة في شارع مطابق للقبلة، وشرعت في الصلاة.

ركعتان خفيفتان يتبعهما ركعتان أشدَّ خفة.

بشيء من الأسى مختلط براحة كعادة المتناقضات تنهش عقلنا، صلاة في جلوس برخصة المسافر ليس هناك مكان لأصلي فيه، ولن أعود إلى البيت قبل العشاء.

لهذا جعل الله الرخص.

بعد الصلاة، وضعت السماعة ثانيةً، وسمعت ما يقول الرجل، وبعد ساعة وجزء منها انتهت الدورة كاملة.

نزلت من الحافلة، وكانت الساعة الثانية، وقد اقترب موعد دخول القصر.

ذهبت إلى برج الذهب، وشاهدت ما فيه من آثار ومقتنيات كلها تُمجِد في البحرية الإسبانية، والصراع ضد انجلترا وفرنسا ثم صعدت قمته لأشاهد الوادي من الأعلى للأسفل.

حان موعد الذهاب إلى القصر، وكانت المسافة تستغرق حسب توجيهات جوجل ماب قرابة 10 دقائق، وقد صدق حينها.

ذهبت إلى القصر مظهرًا تذكرة الدخول، سلمتني المسؤولة عن تنظيم الدخول مذياعًا ما عليك إلا أن تقف أمام المكان، وتضغط على رقم الأثر؛ كما هو موجود بالدليل ليشرح لك ماهية الأثر.

ولأنه بالإنجليزية لم أعبأ به كثير، وآثرت الاستمتاع بالقصر، وما يحويه من زخرفات.

في الحقيقة هذا القصر يسمى بالقصر الملكي أو (ريال ألكاثار) ويسمى بقصر (دون بيدرو) أيضًا، وقد بَناه المدجنون على أنقاض قصر (المورق) قصر بني عباد ملوك إشبيلية في القرن الخامس الهجري بطلب من ملك الإسبان (دون بيدرو).

في الحقيقة لا أبرع في وصف الأشياء غير أن القصر له ما له من رائعات المناظر، التي تنم عن جمال العمارة الأندلسية المختلطة بألم الفراق.

في القصر باحات كثيرة، وأروقة، وسراديب، وشرفات، غير أن أكثر ما يضفي بهاء للقصر النقوش ذات طراز الأندلسيين التي تزين السقوف والمداخل؛ وتوجد كلمة تضفي ألمًا على ألم منقوشة على إحدى الجدران بالعربية: عزَّ مولانا السلطان (دون بيدرو) أيده الله.

لم يدرك من نقشها أن الإسبان لا يتلقبون بالسلطان، ولم يدر أن الله مولاه وليس (دون بيدرو)؛ كما أن الله لا يؤيد الكفرة.

بعد ساعة أو أكثر قليلًا من التجوال بين جدران القصر مبهورًا بجمال ما يحوي من نقوش وزركشات، ذهبت في أخر القصر عدة حدائق متصلة بعضها ببعض بها شجر برتقال.

حدثت نفسي سائلًا: هل يحق لي أن آخذ من ملك أجدادي ولو ثمرة؟!

لم أتردد فقطفت برتقالة من الشجرة، غير أنها بدت مرة الطعم كأنها تحكي ذل الأيام والسنين التي عاشها أهل تلك الأرض بعد الطرد والإجلاء، وانتهت رحلتي سريعًا مع أحد أفضل الأماكن في إقليم (أندَّلُوسيا).

مَوكِب الإِبَاء

خرجت منهيًا رحلتي إلى القصر، وعند باب الخروج في تمام الرابعة نظرت تجاه باب الدخول، وعليه صف طويل من الناس، وقد بقي على موعد الإغلاق ساعة؛ فلمحت محجبتين تبدوان من المغرب؛ فذهبت إليهما، وكانتا أم وابنتها فأخبرتهما أن القصر سيغلق بعد قليل لن تستطيعا الحصول على التذاكر، ومن ثم الاستمتاع بعدها بما فيه من زركشات، وسقف

فقالت إحداهما على استحياء: ليس لدينا يوم آخر في أشبيلية، وهذه فرصتنا ربما نلحق ما نستطيع رؤيته.

ذهبت، وأنا أرسم بخيالي لحظة خروج ملك أشبيلية المخلوع (محمد بن عباد بن إسماعيل) المعروف بالمعتمد.

خرج المعتمد من بوابة قصره، وهو يرى أن أهل اللثام قد استلموا أسوار القصر وإيوان الملك، وقد تثاقلت قدماه على المسير فكيف يمشي على رجليه، وقد كان لا يخرج من هذا القصر إلا غازيًا ملوك الطوائف أو مودعًا رُسل القشتالي.

مشى المعتمد، وهو ينظر إلى شعبه المتأهب لوداعه المتخوف من العصر الجديد، وما إن نظر إليهم حتى اختفت العيون من النظر فكيف ينظرون إليه فمنهم مشفق عليه، وآخرون يتوارون خجلًا بعدما سرقوا قصره، وسبُّوا ابنته ومنهم من خجل عجزًا عن نصرته.

تثاقلت الأقدام، وهي تجر ورائها أملًا كاذبًا من ابنه الهارب (عبد الجبار) بأن ينتصر، ويستعيد ملك أبيه، ويساوم (يوسف بن تاشفين) على حرية أبيه مقابل ألا يغزو مراكش، ولم تفارق تلك الأحلام خياله حتى وصل إلى نهر

الوادي الكبير؛ مستقلًا القارب الذي سيقله إلى حيث لا يدري؛ فعادت إليه ذكرى اللقاء الأول بأم الربيع؛ حيث كان النهر مبتدى الحب، ومنتهى الملك فحمل ذكرى معه من شاطئ الواد لأنه في قرارة نفسه يعلم أنه لن يعود، وأوهام خياله ليست إلا للترويح عن ثقل الروح.

ذهبت لأجلس على محطة الترام المقابلة للكاتدرائية للتجول على خط الترام مستذكرًا أيام إسطنبول الجميلة؛ ممنيًا نفسي برحلة جيدة قد تكون قصيرة، لكني وجدتها أقصر مما أتخيل بعد محطتين أو تزيد واحدة وصلت إلى نهاية الخط في (سان برناردو).

خرجت من العربة، وجلست أفكر، وأبحث عن مطعم عربي حلال مؤكدًا على تلك الجملة نائيًا بنفسي حتى اللحظة عن البابيا أو غيرها لما اشمئزت نفسي من سيقان الخنازير المعلقة.

وجدت أن هناك مطعمين عربيين موجودين بالقرب من الكاتدرائية؛ فقفلت عائدًا في خط العودة

حتى وصلت للمطعمين، فاضلت بين الذي يصنع الأكل السوري، وبين الأكل المغربي؛ فانحزت للمغربي ثانية لا لشيء إلا أنني أشعر أن الأندلس شقيقة المغرب، فحق الجوار يبلغني المغرب.

والأكل السوري على حبي الشديد له فأنا متعايش معه في مصر، والكويت ومُجربًا له في إسطنبول.

ذهبت للمطعم، وهنا قابلني نادل ليس مغربيًّا؛ إنه ليس بجمال نادلة أمس.

سألني عما آكله قلت له دون تردد: كسكس باللحم؛ فهاتفتني نفسي أن أجرب الجديد بما أني أكلت الطجين أمس.

غير أني استمتعت بالطجين أكثر من الكسكس، ولا أدري لاختلاف الكفاءة بين المطعمين أم السبب آخر.

بعد تناولي الطعام سألت النادل هل هناك مكان أصلي فيه؛ فقال هناك حديقة قريبة بالخلف يمكنك الصلاة فيها، لكنها ليست مكانًا للصلاة قد ينظر إليك الناس شذرًا شكرته، ودفعت الحساب.

فكرت قليلًا، وبالبحث والمقارنة والنظر في برنامج مواقيت الصلاة، وجدت أنه بإمكاني الذهاب إلى المسجد للصلاة؛ فهناك متسع من الوقت يكفي للوصول.

ذهبت ماشيًا محاولًا أن أقلل اعتمادي على الجوجل ماب مستذكرًا رحلة أمس من المكان نفسه إلى المكان نفسه.

نجحت إلى حد كبير أن أصل بأقل اعتماد على البرنامج.

وصلت وهنا هاتفني أحد أصدقائي من الكويت؛ ليسألني عن الرحلة، وعن بعض الصور التي وضعتها على مدى يومين بين مَدرِيد وإشبيلية.

وضحت له خطتي لباقي الرحلة التي تبدو غير منطقية كثيراً؛ لأُناس كثيرين لكن شرحت له الأسباب، وحان وقت الأذان والمسجد مُغلق.

وقتها جاء رجل وفتح المسجد وأذنَّ بداخله بصوت لا يسمع خارج المسجد.

في أثناء دخولي لاحظت صندوقًا مكتوبًا عليه "وقف مسجد إشبيلية".

في الحقيقة المسجد كما معظم مساجد إسبانيا ضيق حد الضيق.

مساحته أقل من شقة هل هذا ما يسعى له كانوتيه لإنشائه.

صلينا المغرب وكنت مُتشوقًا؛ للصلاة خلف الإمام الأجنبي الذي علمت أنه غرناطي،

وذلك لأني أحب لكنة الأعاجم في التلاوة؛ غير أن الأعجمي لكنته في القراءة كانت أفضل من كثير ليس أفضل مني فحسب.

بعد الصلاة صليت العشاء قصرًا وجمعًا.

جلست قليلًا؛ فرأيت الرجل المغربي الذي أرشدني إلى المسجد أمس يدخل، صلى المغرب والعشاء، وجلسنا معًا ننظر إلى الصحبة المكونة من مغاربة، وإمام إسباني يتلون ذكرًا جماعيًّا لا أحبذه لكني دائمًا أستمتع به، في أثناء سريان الحلقة قررت أن أكتفي اليوم بما رأيت وأن أعود إلى الحجرة مستعدًا لسفر غدٍ.

بعد الانتهاء قررت التكلم مع الناس؛ مستشعرًا معنى التواد بين أبناء الأمة الواحدة قائلًا لهم في داخلي أنا أحمد من مصر، أنا منكم نحن هنا في الأندلس.

دخلت مُتحدثًا: السلام عليكم.

وعليكم السلام.

أنا أحمد من مصر جئت سائحًا إلى الأندلس، أعيش في الكويت، وجئت من يومين.

أهلًا بكَ يا أخي، أنا مغربي، وهذا مغربي، وهذا الشيخ (عبد الغني الغرناطي).

قال لي الشيخ: لماذا لا تجلس معنا، اجلس بدل الوقوف.

قلتُ متحدثًا إليه: أهلًا بك يا شيخ، هل أنت موريسكي؟

قال لي: لا أعرف.

في هذه اللحظات شهوة الكلام يجب أن تتوقف.

من أين لك الحق أن تسأل الناس عن أصولهم؟!

لم يكن سؤالي عن الشخص إلا لأنه من غرناطة، شعرتُ بالخطأ ورُبما الوقاحة حاولت تغيير الكلام حتى أنسى الناس خطئي، عفوًا وقاحتي.

بادرني الشيخ، ماذا تعمل في الكويت؟ انفرجت أساريري متجاوزًا حديثي، وقررت الإسهاب في الكلام لتغيير الموضوع.

قلت له: أنا أعمل محاسبًا في الكويت منذ خمس سنوات، وجئت للسياحة، وهذه الرحلة حلم منذ (15 عامًا) بادرني أحدهم قائلًا: الكويت حارة، قلت له: جدًّا جدًّا جدًّا.

قال: نحن في الصيف نعيش في جوٍّ حار لكن ليس كما الكويت.

سألني الشيخ ماذا زرت اليوم قلت: زرتُ (حي الماكارينا)، والنهر، والبرج، والقصر، إضافة إلى أني رأيت الخيرالدة.

سألني: أي برج قلت: برج الذهب، فقال: (تورو دي أورو)، قلت له: على ما يبدو.

وسألني: أين تذهب، قلت لهم: سأذهب غدًا إلى قادش ورندة.

وبعد غد سأرحل إلى قرطبة لأزور مسجدها، والقنطرة، وبعد ذلك عرفت أن هناك مدينة الزهراء يمكنني زيارتها.

ثم أذهب إلى غرناطة؛ فأزور البيازين، والحمراء، أعرج على مالقة لأزور قصبتها ثم العودة لمدريد.

حديث لطيف دار بيننا ثم الختام كان بصورة تذكارية؛ ودعتهم، وخرجت.

قررت العودة للتجهز لسفر غد، وعند ناصية – إمة – الشارع الذي أسكن به رأيت أن هناك فكهاني.

ذهبت إليه مستذكرًا أيامًا بعيدة فوق الثلاث سنوات؛ حين رأيت بأحد الجمعيات الرئيسية بالكويت علبة بها رمان إسباني، ولأن نفسي تتوق للأندلس، وما يأتي منها قررت تجربته؛ فرأيت أنه أفضل رمان أكلته في حياتي.

الحب شيءٌ والتجربة شيءٌ آخر، أنا رجل عاطفي الشعور؛ لكنني في الأكل أكون أو لا أكون؛ لذا فتذوقي لذلك الرمان كان منصفًا دون تحيُّز أو عاطفة.
دخلت المحل مسلمًا على صاحبه بتحية الإسبان "هولا"، ثم مددت يدي على الرمان محاولًا أخذ 3 ثمرات؛ فسمعت صوت صاحب المكان يقول شيئًا أردفها "بأميجو" مشيرًا للافتة مكتوب عليها بالإنجليزية (لا تلمس البضاعة أنا هنا لخدمتك)، ولا أدري ما السبب
انزعجت فكيف أتعامل معه، وهو لا يعرف إنجليزية، وأنا لا أعرف إسبانية
حدثتني بلطف فتاة تشتري بعض الفاكهة قالت: هنا ليس هناك خدمة ذاتية تبعتها بابتسامة كأنها تقول: لا عليك أنت لا تعرف.
جاءني الرجل، وقال: ماذا تريد، وأشار إلى لرمان؛ بالطبع لم أفهم ما قال، لكن أحيانًا نفهم بعضنا.
أشرت إلى الرمان (3 ثمرات)، وإلى البرتقال (ثمرتين)، ومثلهما إلى اليوسفي المعروف (بيوسف أفندي) أو أفندي؛ كما في الكويت.
كم الحساب؟
قرابة سبعة يورو.
تأخذ فيزا؟
ماذا؟
حسنًا أعطيته 10 يورو، وأعطاني الباقي.
ذهبت إلى البيت، وقشرت الثمرات، ووضعتها في طبق، وتناولت منها ما استطعت، وتركت الباقي ربما للصباح!
وخلدت للنوم؛ مستعينًا به على سفر يوم غد.

عَلى ضِفة المُحِيط

في الحياة رغبات، وإن شئت شهوات، وبالعودة للوراء شهرًا ونصف تقريبًا.

حين سألتني سفارة إسبانيا عن توضيح برنامج لرحلتي طلبت مني جدولًا به الأماكن التي سأزورها؛ فقدمت لهم جدول بكل مزاراتي، وفي يوم الرحلة الرابع كان المكتوب زيارة إلى قادش.

وكان لتلك الزيارة سبب، والسبب ليس بوجيه، وغير معقول، وغير متصور.

بعد الحصول على التأشيرة جلست مع زميل لي، وقلت له: ما رأيك أن أمضي يومين في البرتغال من رصيد مدريد، فأشار إلى أن جعلت لمدريد أربعة أيام، وذلك كثير فاجعل لها يومًا أو اثنين، واذهب إلى أمستردام أو بروكسل.

وبعد نقاش قررت أن أخصم من مدريد يومين، وأضيف ثالثًا، وأذهب إلى إيطاليا.

ولكن ما علاقة هذا بما سبق.

كانت رغبتي أن أرى المحيط الأطلسي، ذلك البحر الواسع بحر الظلمات، وكانت خياراتي أن أراه في لشبونة، وبما أن البرتغال استبعدت من خطتي فليس أمامي إلا قادش جنوبًا أو أستورياس، وغاليسيا شمالًا، ولأن الشمال بعيد، والجنوب قريب، ولبرنامجه وقت وافر فقررت الذهاب إلى قادش.

لا لشيء إلا لأرى المحيط.

من يدري، هل تكون هذه آخر زيارة لي إلى أوروبا؟

أو قد تكون زياراتك مناطق ثانية بعيدًا عن مناطق البحار؟

وقد تكون.. وقد تكون..

هكذا تعبث الشهوة بعقل الرجل لتدفعه نحو.............

نحو تجارب جديدة قد لا تكون ذات نفع لكنها ممتعة، وهذي هي متعة السفر.

كنت قد حجزت تذكرة قطار ذهاب وعودة من إشبيلية إلى قادش، وتذكرة حافلة من قادش إلى رندة حيث أرى المحيط ثم أذهب إلى رندة؛ ثم أعود إلى قادش منها إلى إشبيلية.

ضرب من التسرع وعدم التأني لكنه غير مكلف كثيراً؛ إذ إن محطة الحافلات بعيدة كثيراً عن محطة قطار قادش، ألغيت الرحلة وأنا في الطريق مكتفيًا برؤية المحيط متحسرًا على عدم رؤية رندة بارتفاعها على جبلين.

ذهبت إلى محطة القطار، ولأني أصبحت أكثر احترافية لم أذهب إلى مكتب الاستعلامات، وبحثت عن الرصيف المخصص للقطار.

لنكن صادقين مع أنفسنا اختيار المرء لكرسي بجانب النافذة ليس ضربًا من التميز عن الآخرين؛ بل هو طلبًا للراحة، وفي المقام الأول خاصة مع القطارات تأمل لإبداع الله في خلقه، وإبداع الخلق في الحياة.

كان القطار فارغًا تقريبًا، لكني جلست في الكرسي المخصص لي وبدت ملامح الطبيعة تظهر على الطريق الذي لم يلبث طويلًا حتى انتهى؛ معلنًا دخول محطة قادش في أقل من ساعة ونصف.

خرجت من محطة القطار، وجدت أمامي الميناء، وتظهر سفينة عليه كأنها تستعد لخرق المحيط من وسطه.

آثرت التمشي قليلًا بين أزقة المدينة التي لا أعلم عنها شيئًا، ولا أرغب منها إلا شيئًا واحدًا هو المحيط الشاسع.

بعد التمشي رأيت حافلة سياحية، وكشك صغير لحجز قررت أن أحجز تذكرة له تساعدني على قضاء يومي بين أزقة المدينة، وشوارعها، وبيوتها.

بعد محطة أو اثنتين نزلت من الحافلة، وقررت التوجه نحو المحيط مشيًا، ولو قليلًا حتى وجدت حصنًا صغيرًا على طرف البحر، وأُناس يذهبون ويجيئون من تلك الناحية، فذهبت إلى هناك فوجدت عدة صخور، وممرات بينها توحي كأن المكان في حالة جزر منذ مدة كبيرة.

صخور بينها فتحات صغيرة يأتي موج المحيط من بعيد بعيد بعيد، وهو خائر القوى من طول المسافة فيملأ تلك الفتحات، ويعود.

جلست على أحد الأسوار قليلًا موجهًا وجهي لوجهة لا آخر لها، وبعد قليل قد بقي على الظهر أقل من ساعة.

بحثت عن مسجد على جوجل ماب.

فكانت المفاجأة المسجد على بعد 300 متر.

أساسًا الممر الذي دخلته لساحل المحيط ربما يكون تلك المسافة، والوجهة بخط مستقيم للأمام

حسنًا، نظرت إلى أقرب مسجد بعد هذا المسجد فوجدته في طنجة على بعد 90 كيلومترًا من هنا، وثالثًا في الجزيرة الخضراء على بعد كبير لا أتذكره.

اكتفيت بتلك الثلاثة، واخترت الأقرب حرصًا على وقتي، وحتى لا ينهار المنطق أيضًا.

مشيت حتى مكان المسجد، وقد كان تبقى ما يزيد على نصف ساعة لكني لم أجد المسجد هنا

قلت بين نفسي: سيظهر وقت الأذان، لا تقلق.

ذهبت في محاولة فاشلة للعثور على مطعم حلال أتزود به، ولو بشطيرة بها دجاج أو شاورما (دونر كما يقولون) لكني وجدت المطعم مغلقًا، وذهبت إلىمحل ملابس وإكسسوارات لأسأله: متى ينفتح هذا؟

وجدت فتاة مغربية صغيرة، أدركت أني عربي، فأجابت بكل ذوق: المطعم لن يفتح فهو مغلق منذ مدة.

حسنًا، قد قرب وقت الأذان، رجعت قافلًا إلى مكان المسجد حتى أرى مكانًا مفتوحًا.

أليس هذا المحل المغلق منذ نصف ساعة الذي تشعر من شكل بابه كأنه مخزن أو ورشة نجارة دخلت وقلت في قلبي: لا حول ولا قوة إلا بالله.

دخلت المحل أو المسجد، وجدت رجلًا كبيرًا في السن كأولئك الذين يخدمون المساجد في مصر غير أنه ودود يرحب بالناس.

وجدت صندوقًا صغيرًا لتلقي التبرعات، ودخلت مكان الوضوء الذي لم يكن سيئًا.

بعد الوضوء تحدثت مع الرجل الذي بادرني بالترحاب؛ لأني لست مألوفًا، وحدثته عن نفسي قليلًا، وسألته عن هذا المسجد الصغير، وهل هناك غيره؟!

فقال: في قادش لا؛ لكن هناك بالجزيرة الخضراء، وهناك واحد أظنُّ أنه (بخيريز دي لا فرونتيرا شريش) أو مكان آخر لا أتذكره تحديدًا، وقال: أن قادش بها خمسين أسرة مغربية فقط، وهذا المكان يسعهم لصلاة الجمعة، وباقي الصلوات.

وأن إيجاره 500 يورو، ومع بعض الخدمات كالماء، والكهرباء، وأدوات التنظيف يتكفل بها الخمسين أسرة.

حانت الصلاة صليت الظهر ثم العصر، ودعت الرجل في هدوء وشكرته ثم خرجت.

ركبت الحافلة السياحية متخذًا طريقي وسط مسالك قادش وشواطئها وكنائسها؛ مستمتعًا بالمباني دون الاكتراث بما تحويه من أسرار.

لكن أثرتني معلومة، وهي أن منشأ الفلامنكو كان في قادش، واستمر المسجل في شرح المعالم، وما بها حتى أكملت دورة كاملة، ونزلت في المكان نفسه حتى جلست عند شجرة تبدو كأنها غرس المسلمين، ولو قال أحد إنها غرس الفاندال أو الرومان لربما صدقته؛ فالشجرة تضرب في عمق الأرض، وتغرس في حكايات التاريخ، ووجدت بجانبها شجرتين متلاحمتين كأنهما أهملا حوادث الزمان وتتابع الممالك والنكبات، وقررتا التآلف فيما بينهما.

سلكت طريقي باتجاه الميناء باحثًا عن مطعم؛ لتناول وجبة الغداء حتى وجدت مطعمًا إسبانيًّا يقدم الأكل البحري بجانب الساحل.

دخلته حتى قابلني نادل إسباني لطيف المعاملة رحب بي، وأجلسني على طاولة ثم أعطاني قائمة الطعام.

بحثت في القائمة عن شيء مناسب حتى وجدت وجبة سمك قاروص مع أرز بالجمبري أو القريدس كما في اللغة أو الروبيان كما الخليج.

سألت الرجل، وعزمت أن أجعله يقسم بالله، والمسيح والروح القدس، وكل سانات إسبانيًّا أنَّ الطعام ليس مطهوًّا بشيء مُحرم؛ إذ كانت أولى تجاربي في مطعم ليس عربيًّا.

لكني تراجعت، وطلبت منه الإجابة دون قسم.

طمأنني، وسألني إن كنت أريد قطع الخبز المحشو بالزيتون، والمطهو بزيته، وأكد لي أنه ليس به شيء ما.

أخذت الخبز لتناوله حتى يأتي الطعام.

وجاء الطبق به بضع ملاعق من الأرز مخلوطة بالجمبري، وملفوف عليه لحم سمك القاروص.

إيه ده، بس كده.

أومال أنت فاكر إيه.

تناولت الوجبة، ومعها مرارة العشم، والتمني مستذكرًا أيام كويت الخير، وتجرعت ما يعادل 8 دنانير أيضًا، وتلك التي تعادل ثمن (3 وجبات) من النوع نفسه عندنا في الكويت بأحجام أكبر لا تستطيع إكمالها إلا بشق الأنفس.

أكملت المشي في اتجاه المحطة متخذًا طريق الساحل طريقًا لي بين مشي وراحة؛ أمضيت كثيرًا من الوقت في متابعة موج الأطلسي يضرب الصخور، والطيور الخامصة تطير إلى سطح الماء غامسة مناقيرها في مبتدى العمق راجية ربها أن تعود بطنها مليئة بما يرضي جوعها.

يا لها من حياة.

أسراب الأسماك تصطدم بحيوان بحري يأكل منها ما يأكل، وتهرب الباقية متشتتة.

فيذهب للقاع؛ فتقبع في شبكة صيد، وأخرى للسطح فتنتهي في فم طير، وأخرى تسير لم يأت أجلها.

هذه هي الحياة تدافع، وتدافع.

بعد طول مكوث في تلك الساحة على الساحل مشيت نحو ساحة أخرى منصوب بها مدافع قديمة تبدو كأنها بقايا الطرف الآخر.

أكملت سيري في اتّجاه المحطة.

مكتفيًا بما فعلت، منتشيًا بما رأيت، معجبًا بتلك التجربة.

يا لها من تجربة، تقضي يومًا أمام ساحل.

تجربة تستحق.

نعم، تستحق.

تستحق ليست لأنها تستحق؛ بل لأنها تجربة أردت فعلها.

وهذا هو درس اليوم أن في بعض الأحيان يجب عليك فعل ما تريد ليس ما يفيد.

تشاهد ما تحب ليس ما يجب.

خرجت سعيدًا من تلك التجربة التي قد لا تعني شيئًا عند أغلب الناس؛ بل ربما كل الناس إلا واحد هو أنا.

لم تكن وجبة اليوم كافية كما ينبغي لتكون وجبة يوم.

قرب المحطة، وقد تبقى أكثر من ساعة ونصف على موعد قطار العودة.

وجدت مطعم وجبات جاهزة بيتزا وبرجر، يكتب في لافتته حلال.

دخلته مستعينًا بما فيه لإشباع بطني.

نظرت في قائمته فقلت له أريد بيتزا بالشاورما (هذا تقليد غريب رأيته بأوروبا، والأغرب أنه أعجبني)، وقبل أن يبدأ في صنع البيتزا جذب انتباهي نوعين، فسألته عنهما، فقال: لا هذي ليست حلالًا.

قلت له: اصنع تلك المتفق عليها

تحدثت معه حديثًا لطيفًا بسيطًا على قدر دقائق الصنع والأكل، وأنا أضمر في نفسي سوء ظن أن هذا ليس من مجموعة الخمسين.

بعد التناول، ودفع الحساب ذهبت إلى محطة القطار، وكان قد بقي عليه الكثير، والكثير، والمغرب قد حان أوانه.

تصارع الفقيه بين أيهما أولى أصلي هنا أم عندما أصل مكاني في إشبيلية

لم أتردد كثير في طرف المحطة مكان فارغ من أي شيء.

افترضت الطهارة ما لم يظهر عكس.

وشرعت في الصلاة مستقبلًا القبلة مغرب ثلاث وعشاء اثنتين.

كنت أتوقع أن يحدق الناس بي؛ لكن لا أحد مكترث لما فعلت.

جاء القطار، وركبت مكاني بجوار النافذة، ولكن الليل يهجم فلن ترى شيئًا

لكن لا بأس، يبقى مكاني الأثير.

ومع تحرك القطار خرق سمعي صوت يهمس بتحية الإسبان "هولا"

قلت لها بالإنجليزية: أهلًا وسهلًا

قالت: مكاني هُنا، قلت لها: هو مكاني لكنني أتركه لك، قالت: لا أنا أقصد أن مكاني بجانبك؛ فهل لي أن أجلس؟

قلت لها: بالطبع على الرحب والسعة.

هل تحبين الجلوس بجانب النافذة؟

كانت تلك المرة الأولى طوال حياتي التي أعرض فيها التخلي عن مكاني المفضل طوعًا بل حبًا وكرامة وذلك من فرط ما رأيت من جمال ورقة.

شكرتني بابتسامة كشفت عين بياض أسنانها وجمال روحها.

تطلعت إلى مزيد من الحديث بعد أن سألتني عن اسمي، وأي البلاد بلدي؛ فشرحت لها الكلام المكرر؛ أنا اسمي أحمد من مصر، محاسب في الكويت، وتلك بلد أعلى الخليج العربي.

وأنتِ أيتها الجميلة؟

قالت لي: مارية.

قلت في سري: أأنت مارية التي تغني بها سانتانا التي نضجت بـ(هارلم) أم مارية التي كانت تغني لها عصابة (لا كازا دي بابل)؟

أي المارية أنتِ مؤكد أنك الأجمل فيهم!

حديث قصير، وشرعت هي في القراءة عبر "الكندل"، وبدأت بالتفكير كيف للرحلة أن تطول، وكيف لمارية أن تبقى ففي مثل تلك اللحظات تود لو أن لديك طريقة ما توقف بها الأحداث تذكرت أيام قطارات مصر التي ربما تقف لمرور قطار آخر أسرع منها أو هناك عدم استعداد للمحطة؛ لاستقبال القطار.

لهذا تقف القطارات، ولأشياء أخرى لا يصح عنه الكلام -نسأل الله السلامة- وبعد زمن قليل في محطة أوتريرا -بلد لاعب إشبيلية الراحل (خوسيه أنتونيو رييس)- ودعتني بالابتسامة نفسها الساحرة لكنها كانت

أقل سحرًا؛ إذ إنها كانت تنذر بالفراق، وأكملت رحلتي حتى (سانتا خوستا) راجعًا إلى مكان الإقامة.

بعد الوصول شرعت في أكل ما تبقى من الثمرات؛ ثم حضرت حقائبي، وكل شيء مستعدًا ليوم غد تاركًا إشبيلية ذاهبًا إلى قرطبة.

صحوت بعد الفجر بقليل مجهزًا نفسي للرحيل، وبينما كنت أودع إشبيلية بعين كنت أرقب قرطبة بأخرى.

كانت قدماي تزحفان ببطء نحو القطار، ويدي تجر الحقيبة بقوة.

كان القلب مشتاقًا لقرطبة، والعقل مشغولًا بإشبيلية.

درب جديد ....

مكان جميل ....

وخلف كل هذا شوق قديم ....

وداعًا مدينة المعتمد أهلًا مدينة الخلائف.

قُرطُبَة

قرطبة العامة، مادة الدولة، والرعية.

في زمن بعيد بعيد كنَّا هناك أنا، وأنت............

وطال الكلام بين أبي عامر، وصديقه عن قرطبة، والحكم كما وصف ذلك وليد سيف في ربيع قرطبة.

أما أنا في زمن قريب قريب، بل قريب جدًّا في يوم الأحد يوم العطلة الرسمية 2019/11/17 نزلت أرض قرطبة، وكانت لقرطبة حكاية معي، ولم تكن مجرد حكاية فهذي مدينة الخلفاء.

كانت لقرطبة معي أجمل حكاية في العمر كله، وكانت لي فيها أيام ومرت زي الثواني في حبها.

قرطبة مدينة الخلفاء.

قرطبة مدينة الداخل، والناصر، والحكم، والمنصور؛ ثم أصبحت قاتلة الخلفاء، وسافكة دماء حكامها.

حين تدخل قرطبة ترى أمية مرفوعة راياتها، وجيادها موصولة بجياد.

وكانت آخر جياد وصلت بجياد أمية خيول الموحدين في الأرك إذ أنها كانت أخر الخيول، وتولى أمر الجهاد بعد ذلك بغال لم تقوَ على الركض؛ لمجابهة العدو المتربص.

قرطبة مدينة الصراع بين البربر، والعرب على إمارة بسيطة، وسيطرة محدودة.

قرطبة مدينة الرصافة، والداخل.

قرطبة مدينة الزهراء، والناصر.

قرطبة مدينة المكتبة، والحكم.

قرطبة مدينة الزاهرة، والمنصور.

قرطبة مدينة حكم الجماعة مع بني جهور.

ثم، ثم لا شيء .

رحلت قرطبة عن محور الحكم فعليًا زمن الطوائف، وضاع صيتها في ظل تمدد بني عباد ملوك إشبيلية حتى أخذوها؛ ثم تولاها منهم المرابطون وراحت قصتها مع ما راح من آثار الأمم فلا شيء يبقى والكل إلى زوال.

رأيت الدهر مختلفًا يدورُ	فَلاَ حزْنٌ يَدُومُ ولا سُرُوْرُ
وقد بنت الملوك به قصورًا	فلم تبق الملوك ولا القصور

هكذا وصف الإمام عليّ الدنيا في بيتين

وهكذا كانت قرطبة، وغيرها

لم يبق من قرطبة إلا مسجدها الجامع، وقنطرة السمح وأطلال الزهراء.

هذا فقط!

لا ليس فقط؛ بل هناك روح قرطبة.

روح قرطبة ليست كعالم الغيبيات لا تراه؛ بل يمكنك أن ترى روحها في حيها القديم، ومنازلها القديمة صاحبة الطراز العربي، وذات الشرفات المملوءة بالورود، وشوارعها الضيقة التي لا تسع إلا لحافلة واحدة تسير في اتجاه واحد.

ترى روح قرطبة في حيها اليهودي، وتمثال ابن ميمون طبيب صلاح الدين، وقربه تمثال إمام الظاهريين صاحب طوق الحمامة سيدنا ابن حزم.

ولكن المدن ليست كالبشر تخرج منه الروح للأفق الأعلى؛ كما تقول أساطير الكتب لكن حين تخرج المدينة من روحها الإسلامية؛ فتنزل فيها روح الكاثوليك وقد قرر أهل الملة الأخرى أن يكون للمدينة ملاك حارس يحميها بعينه التي لا تنام، ويسهر على راحتها، ويبسط أجنحته ليقي أهلها شرور الحر، والبرد وكل شر.

بالطبع ليس هذا الملاك هو الأب فهو خالق الكون، ولا الابن فقد فدى نفسه فداءً للبشرية، وليس روح القدس حامل الأمانة.

ملاك تلك المدينة هو(سان رفاييل) أو(إسرافيل) كما تقول العقيدة المسلمة.

وهنا تتنازع الروحان على السيادة؛ فالتآلف يكون بالعيش، أما السيادة فلإحدى الملل لا المشاركة.

أما قصتي مع تلك المدينة فتنقسم لشيئين؛ كما حال كل مدينة إحداهما تجربتك، وأولهما خبرتك عنها.

وبتفصيل أوضح تاريخ تلك المدينة، وحاضرها معك.

وعلى عكس المتوقع ابدأ بحكاية الحاضر، ومنها نعرج على الماضي فقصتي تسير عكس التقدير الزمني.

حكايتي في قرطبة:

نزلت من القطار القادم من إشبيلية لقرطبة مستعدًا؛ لزيارة مدينة بني أمية، ومهوى القلب، وزيتونة الروح؛ فكان أول ما وقعت عيني عليه كلمة مكتوبة بالإسبانية هوى لها فؤادي، وقرأها لساني بالزغل فتذكرت أخر أيام مالقة، وزاغ قلبي (لحامد الثغري)، ومذبحة مالقة وآخر أيام بني الأحمر.

ذهبت إلى محطة الحافلات، وركبت حافلتي التي ستأخذني لأقرب مكان للسكن إذ أن سكني كان في بيت قديم من بيوت قرطبة في حيها العربي أو قريبًا من ذاك كما كان في إشبيلية، وكما سيكون في غرناطة.

نزلت من الحافلة، ومشيت وسط البيوت القديمة أشم نسيم قرطبة، وأتخيل أيام الداخل، ومن جاء بعده، وأتساءل عن الزهراء، والزاهرة عن ربض شقوندة، وفقهاء الحكم أين طار ابن فرناس، أين خان أبي حمدون الذي سكنه المنصور العامري، وهنا تذكرت شيئًا واحدًا،

قاله نزار: ماتت خيول بني أمية كلها.

وبعد زمن ليس باليسير، وشدٍّ وجذب مع رفيقي الوحيد في رحلتي الأندلسية جوجل ماب، رأيت صاحب المكان، وكان بشوشًا حمل حقيبتي للغرفة، ورتبت أغراضي استعدادًا ليومين في مدينة الناصر.

بعد قسط من الراحة امتد ساعتين حملت حقيبتي، وصوبت وجهي ناحية مسجد قرطبة، وقبيل المسجد بشيء يسير، رأيت مكتبًا للاستعلامات، وحجز الباصات السياحية الخاصة بالمدينة.

فسألته عن التذكرة وحجزتها، وكنت أعلم أن لي يومًا كاملًا للصعود، والهبوط في محطات محددة، ولكن ما علمت من الموظف في ذلك المكتب أن مدينة الزهراء مفتوحة للزيارة؛ لكن تلك الزيارة لن تكون قبل يوم الثلاثاء؛ لأن الاثنين مغلقة، واليوم الأحد قد فات وقتها وهنا. جلست في حيرة ماذا افعل، وأنا زيارتي تنتهي يوم الثلاثاء صباحًا، وعليَّ في الثامنة أن أستقل الأتوبيس أو الحافلة لغرناطة.

ماذا أفعل؟

ما تلك المفاجآت الجميلة التي تربك حساباتنا، وتخطيطاتنا التي أمضينا كثيرًا في التخطيط لها، وظهرت فجأة؟

لم يكن لدي مجال إلا لتأجيل السفر، والبحث عن رحلة أخرى لغرناطة بعد ساعتين أو أكثر حتى أزور الزهراء، وأرى ما تبقى من أطلالها.

على الرغم من أني أعلم أن الزهراء -المدينة- ليست موجودة، ولا حتى نصفها، ولا جزء منها، بل ما تبقى مجرد آثار وأطلال تبقت بعد هدمها في الفتنة التي عصفت ببني أمية، وأظهرت في إثرها حقبة ملوك الطوائف.

بالرغم من كل ذلك فإني كنت حريص على زيارتها، ولم أجد بدًّا من حجز جديد لغرناطة، وإلغاء القديم.

وبالفعل فعلت فليس هناك أي خيار لدي في التضحية؛ بالاكتشاف الجميل وفي الرحلات مفاجآتها ولها تكاليفها أيضًا.

صعدت للأتوبيس السياحي، وشغلت الضابط الصوتي على رقم(15) رقم اللغة العربية

ومشى الأتوبيس قليلًا حتى سمعت القائل يقول:

وهنا نصل عند الأثر الأهم في قرطبة كلها: مسجد كتدرائية السيدة العذراء، وهذا القوس أمامها ....

لم أعِر اهتماما لأي قول بعد ذلك بقدر ما أصابتني الصدمة، وبقدر ما جرحتني الكلمة وبقدر ما ....

بقدر كل ألم عشته مع تلك الكلمة.

لم يأت ببالي سوى بيت نزار: ماتت خيول بني أمية كلها.

تداركت نفسي، ونزلت من الحافلة عند القوس الذي بين المسجد والنهر.

وذهبت للقنطرة، وهنا ......

سقطت من عيني دمعة.

تبعتها دمعة.

تبعهما دموع.

وآهات وزفرات، وقلت وقتها النعيم قرطبة، والشقاء قرطبة.

ولم أدر ما سر ذلك، هل صدمتك قرطبة؟

لا وربِّ محمد؛ بل سرتني بقدر صدمتي في إشبيلية.

على الرغم من أن المدينة باهرة؛ فإن الكلمة أذتني: مسجد كتدرائية السيدة العذراء!

دقائق، واستجمعت نفسي، وذكرتها بأن المسجد لم يعد منذ ما يقرب من 800 عام

بعد مكوث غير طويل عن القنطرة أباهي بها نفسي، وأفتخر بما كان من صنع الأولين من جدودنا.

فتلك القنطرة ليست كأي بناء بل هي علامة من علامات المسلمين؛ على الرغم من أن كثيرون يقول عنها إنها القنطرة الرومانية كالقائل في الأتوبيس السياحي الخاص بالمدينة فإنها لا تعني لي سوى شيء واحد هي قنطرة السمح.

بنى تلك القنطرة (السمح بن مالك الخولاني) والي (عمر بن عبد العزيز) على قرطبة.

لم أشأ أن أعد عدد قيسانها لكنهم كما يقول الكثير سبعة عشر.

تلك القنطرة كانت أعجوبة زمانها، وحتى الآن ما زالت جميلة تشهد على الوادي الكبير، وقرطبة.

وقد وصفها كثير من الكتاب ممن يؤرخون للأندلس، وأراضيها بأوصاف يضيق عنها ذلك الكتاب البسيط.

لكنها أروع مما نرى إذ أنها ليس بنيان؛ بل تاريخ، وللتاريخ روعته.

بدأت السماء في الانغلاق مؤذنة بليل جديد لهذي المدينة الجميلة.

بحثت عن المسجد مع رفيقي جوجل ماب فاكتشفت أنه قريب جدًا، وتذكرت قبلها صديقي الذي زار قرطبة قبل بأسبوع، وهو يقول ستجد المسجد بجانب مطعم مغربي، وستسمع نغمات الموسيقى، وأنت تصلي؛ فضحكت لما رأيت من نافذة المسجد طاولات ذلك المطعم.

حان أذان المغرب، ولم يأت المؤذن لكن كان للموسيقى صدى، وكأن الحال يصف الحال.

كان المسجد هذا غير أي مسجد دخلته في إسبانيا إذ أنه مفتوح طوال الوقت صغير حد الصغر له باب كما أبواب المساجد في بلداننا مفتوحة إحدى ضفتيه بزاوية يسيرة، والأخرى مغلقة مكتوب عليه في لافتة (مسجد الأندلسيين)، كما على غير ما رأيت قبل ذلك له مأذنة يتميز بكونه أيضًا له محراب، وعامودين كما التي في مسجد قرطبة الجامع، ومنبر صغير، وتطل شرفة به على المطعم صاحب الموسيقى الهادئة.

انتظرت الأذان

وانتظرت وانتظرت.

خمس دقائق انتظر

أصلي أم ....

لعلَّ الميقات الذي لدي بالرغم من كونه برنامج عالمي لمواقيت الصلاة لكن لعلَّه خاطئ.

هنا دخل عليَّ رجل المسجد ومعه امرأة سألني: قد حانت الصلاة؟

قلت : نعم؛ لكن ليس هناك إمام أو مؤذن.

فقال لي: إذن فلنصلي سويًا.

قال: أذن للصلاة بعد الأذان، قال: أنت تؤمنا.

بعد الانتهاء من الصلاة.

قلت له: أنا مسافر سأصلي العشاء، وقال: أنا أيضًا كذلك، جئت من سويسرا؛ فأنا سويسري اسمي (عمر)، وزوجتي تلك ماليزية.

جئت اليوم من غرناطة، وأمكث يومين ثم أذهب لإشبيلية.

قلت له: أنا مثلك؛ لكني عكسك إشبيلية 3 أيام ذهبت منها في يوم لقادش، وقرطبة يومان؛ ثم غرناطة 3 أيام منها يوم في مالقة.

بعد حديث قصير، قال: هل لديك مانع بعد الصلاة في أن نشرب شاي سويًا في المطعم المقابل؟

قلت له: بكل سرور، وكان، وسيكون حديثنا بالإنجليزية.

صلينا العشاء في ذلك المسجد الغريب، وذهبنا سويًا لمطعم مغربي مجاور غير الذي بجانب المسجد، ولما دخلنا رأيت المطعم، وكأنه بيت عربي قديم؛ بل هو كان كذلك بالفعل به ساحة صغيرة تتوسطها نافورة، وبها قليل من الطاولات؛ ثم على كل جانب حجرة بها طاولات للجلوس معلق على كل منها لافتة باسم عبد الرحمن الأول الداخل، وأخرى باسم المنصور بن أبي عامر، وثالثة باسم الناصر، وطابق علوي مغلق ربما للصيانة أو لسبب آخر.

جلسنا في إحدى القاعات تلك، وطلبنا مشروبات ساخنة لتقلل من برودة الجو أو لأنها تشرب في ذلك الوقت أو .... أو...............

شرب هو قهوة عربي، وأخبرني أنه يعرفها من الطيران الخليجي الذي كثير ما يستخدمه، وأعجبته، وشربت شاي مغربي ممزوج بعدة نكهات حلوة المذاق؛ لتقلل حدة الشاي على لساني أو لربما لأني أحب التجربة، وتلك التجارب لا تأتي كثيراً؛ فانتهزتها، وشربت ذاك المزيج الغريب الذي بدا لذيذًا نوعًا ما غير أنه لا يدنو من المنبهات، ولو شيئًا يسيراً.

وهنا تحدثنا، وسألني: لماذا سقطت الأندلس؟

ولماذا لم تعود؟

ولعلَّ سؤالًا لم يساله: لماذا لن تعود؟

تحدثنا كثيراً عن الأندلس، ولماذا سقطت، وكيف سقطت، وما الفرق بين الأندلس، وبغداد، ودمشق.

لماذا مع سقوط المشرق يعود، والمغرب سقط فانتهى، وأخبرني أن سويسرا بها مدينة كانت تحكم بالمسلمين زمنا اسمها (كانتون فيلز)، وأخبرته أن كذلك فرنسا دخلها المسلمون، وحكم المسلمون صقلية مدة من الزمن، و(باري) بإيطاليا لمدة ربع قرن تقريبًا.

وبعد حديث أفردت فيه وجهة نظري عن الإسلام في الغرب قديمًا؛ حيث انقطاع الجغرافيا بالأندلس عن سائر بلاد المسلمين، وإصرار الإسبان على استردادها، وغير ذلك من ضعف المسلمين عمومًا كل تلك العوامل كانت سبب في ضياع الأندلس للأبد، وحديثًا حيث المسلمون مجبورين على تحمل قوانين ليست مناسبة لشريعتهم؛ فعليهم النأي قدر الإمكان عن مواطن الشبهات، وعدم محاولة الانجرار وراء المخالفات، وأيضًا عدم محاولة التحدي للقوانين التي ليس لهم قدرة على مواجهتها.

حان وقت الوداع، والتقطتنا صور الهواتف لتحمل لكلينا ذكرى جميلة لا تُمحى.

رجعت من حيث أتيت إلى القنطرة، ومكثت هناك برهة من الوقت، وبرهة ثم برهة أتأمل الموقف.

هذي هي قرطبة.

جميلة.

بل جميلة هي كفتاة عشرينية تتألق في حفل يتنافس فيه الفتيات؛ فتسبقهم هي،

سبقت قرطبة كل شيء.

جميلة هي كطفل يلعب مع أبيه، ويعيد أسئلته، ويكررها، ويجيب الأب فرحًا بابنه.

فكنت أنا أعيد النظر مرة وأخرى للمسجد، وأنا على القنطرة.

مهما تصف فهذي قرطبة لا يعكر جمال قرطبة القديمة سوى بعض المطاعم بسيقان الخنازير، وكؤوس الخمر تقرع بمطعم سمى نفسه (مطعم المسجد).

مشيت مجددًا وسط البيوت بجانب المسجد كذلك الطفل الذي يعيد أسئلته أو كذلك الذي تعجبه أغنية ما فيعيد سماعها.

ظللت ماشيًا بين المسجد، والبيوت حتى وكزني الجوع بعدما أهملت قرصه مرات.

فلا بد من الطعام.

لا بد أن أكل.

هل أكل في مطعم مغربي كما حال إشبيلية؛ فأذهب إلى ذاك المطعم الذي كنت فيه منذ ساعة أو أكثر قليلًا.

أم أغير تلك المرة لمطعم أسباني أخذ عليه مواثيق البابا أن يقدم لي أكلًا كل ما فيه ليس بمُحرم

لم تَدُم الحيرة طويلًا.

ذهبت لمطعم أسباني، وسألته عن: "البايية" هل موجودة؟ فقال: نعم، قلت له: أريدها بطعام البحر أو كما نقول سي فود، وألا يكون طهيها بالنبيذ.

قال: لا تقلق.

وبعد دقيقتين، قال لي نادل آخر: هل طلبت شيئا؟

قلت : نعم، طلبت بايية سي فود ليس عليها خنزير، ولا تُطهى بالنبيذ.

نظر لقائمة الطلبات المطلوبة، قال: نعم تريدها خلال؟ قلت له: هي ذاك، أريدها حلال.

أحسست أن ذلك النادل، والذي سبقه، وفي المطاعم السابقة أسبنيها مغربها، وتركيها يريدان ذبحي دون تسمية.

كأن حالهم يقول لست أول مسلم يأتي إلينا يا هذا، وأيضًا لست أتقاهم.

قدم لي الرجل طبق البايية تلك، وكان عبارة عن أرز مطهي بصلصة خفيفة مبهرة بالزعفران، وتوابل أخرى، والطبق به محار، وأشياء أخرى مما توضع بأطباق طعام البحر تناولتها، وأنا أحاول أن أقنع نفسي أنها رائعة أو جيدة على كل حال كانت أفضل من تلك التي أكلتها في الإسكندرية منذ 10 شهور، والتي سأكلها في غرناطة بعد 3 أيام.

وفي نفس المطعم رأيت ثلاجة أيس كريم، كما يطلق عليه البعض أو جيلاتي كما نقول عليه نحن الإسكندريين، وبعد أخذ مواثيق البابا، والقسم بكل ما هو مقدس أن تلك الجيلاتي ليس بها أي نوع خمور، وليست مصنوعة من

جيلاتين حيواني أكلتها بنهم، واستمتعت بها في طريق العودة للحجرة التي أؤجرها منهيًا يومي الأول مستعدًا لليوم الثاني.

صحوت مبكرًا مستعدًا ليوم حافل ليس به كثير من الأحداث بقدر ما حدثه الأكبر ملئ بالزخم الفكري، وتراشق الأفكار.

مشيت باتجاه المسجد من سكني حتى وجدت ساحة بجانب المسلات الرومانية تقريبًا، وبها عدة مقاهي، ومطاعم صغيرة للفطور، ووجدت بركن فيها مقهى "ستاربكس" فدخلته منتهزًا فرصة وجوده لتناول كوبًا من قهوة اللاتيه الساخنة.

بعد تناول القهوة وصلت للمكان بين المسجد، والنهر حيث محطة الحافلات السياحية.

ركبت الأتوبيس السياحي؛ فالساعة التاسعة، وميعادي في المسجد الواحدة والربع.

جلست في كرسيّ، واستمعت للرجل ماذا يقول ولم أعِر اهتمامًا؛ فلست مستعدًا لكلام آخر مستفز.

ولكن الكلام هنا جاء عند الجانب المسيحي من المدينة.

بالرغم من كون المدينة تتشابك كثيرًا بعضها البعض كما سيأتي في جوانبها العربية لكن للمسيحية أثر وأثر ربما وحيد لكنه يؤثر كثيرًا.

هو سان رفاييل.

من (هو سان رفاييل)؟ لم أعِر اهتمامًا لكلام الرجل في المسجل الصوتي للحافلة عن سان رفاييل سوى أنه ملاك المدينة الحارس.

وبالبحث عن سان رفاييل وجدت أنه في الإسلام سيدنا إسرافيل الملك الموكل بالنفخ في الصور يوم القيامة.

أكملت رحلتي في ذلك الباص، ورأيت من أعلى البيوت العربية _هكذا أظنها أو هكذا اعتبرتها_ والشوارع الضيقة والرائحة العربية، ودخلنا للمدينة الحديثة بعمرانها الحديث التقليدي الذي لا يقارن بما وجدته في قرطبة القديمة، وعادت دورة الباص السياحي مرة أخرى حتى وصلت لتمثال ابن حزم، وبعده ابن ميمون، وهنا نزلت، وقررت التمشي حتى وجدت يدين في نصب مرفوعتان كأنهما يدان تغرقان، ويلامس كل منهما الآخر، وقرأت ما كان هناك؛ فعرفت أنه نصب تذكاري لشاعرنا ابن زيدون مع ولادة.

وبالرغم من كل هذا لم تدنو الساعة من الواحدة موعد الرحلة التي أجبرت عليها داخل المسجد.

لما تقدمت لطلب الحصول على تأشيرة الدخول لإسبانيا طالبتني السفارة بتحضير برنامج؛ فحجزت مما حجزت بغية تأكيد جدية الرحلة برنامج إرشادي لمسجد قرطبة، وقصر الحمراء، وقصر المورق.

في مواجهة المسجد عدة مطاعم منها عالمي ك (برجر كينج)، وأخرى محلية لم أثر دخول محلات البرجر خشية طريقة دبح الحيوان المستخدم فذهب لأحد المطاعم المحلية، وكنت مستعد لتكرار التجربة في التبيين، والإيضاح فيما يجب أكله، وما لا يجب.

جاءت النادلة وسألتني فقلت لها: هل لديكم فطور؟ لكن يجب ......

قاطعتني بابتسامة:

موعد الفطور انتهى، الساعة الآن بعد الحادية عشر.

فشكرتها، وانصرفت مستغربًا تلك النصف الساعة التي تنهي كل شيء، وأثرت التمشي حتى موعد الجولة.

في الساعة الواحدة ذهبت للمكان المحدد بجوار شجرة الزيتون.

ادهشني صمود تلك الصخرة بالرغم مما تعرضت له المدينة من نكبات.

انتظرت حتى تجمع الناس، وجاءت المرشدة، وقبل الدخول نبهت علينا أن المسجد كان مسجدًا، وتحول لكنيسة، وحاليًا كنيسة على أرض مسجد؛ ليس هناك صلاة.

ضحكت، وكدت أقول لها: لا تخافي لن أصلي.

قالت: لا جلوس على الأرض؛ حتى لا يظن الأمن هناك أنك تصلي.

بالرغم لستُ المسلم الوحيد في تلك الجولة؛ لكني شعرت أني المقصود.

انطلقنا تجاه المسجد، وبدأت الفتاة تلك تحكي قصة المسجد، وأنا خلفها كما تقابل نزار مع فاتنة غرناطة، وكتب فيها قصيدته الخالدة في مدخل الحمراء.

بالرغم من كوني لست نزار، والفتاة ليست كما هي فتاة نزار، والمكان مختلف، ولم أهتم بشعر الفتاة إن كان منساب؛ لكني رأيت أمية راياتها مرفوعة.

بدأت الفتاة تحكي قصة المسجد بالإنجليزية، وبدأت السماع لها منصتا، ومراجعًا للتاريخ.

حكت أن المسجد أول من بناه كان عبد الرحمن الداخل، وكان الغرض منه أن يكون مسجدًا جامعًا للمسلمين كلهم في المدينة؛ ثم وسعه الأوسط ثم بعده الناصر؛ فكان المسجد من نصيب عباد الرحمن الثلاثة لبني أمية حتى جاءت التوسعة الكبرى في عهد محمد بن أبي عامر. ومشينا مثل الأطفال خلف دليلتنا، ووراءنا العواميد تحكي قصة الشموخ.

أوضحت الفتاة أن المسجد تم توسعته، وفي كل توسعة حاولوا أن يكون على قدر الظروف المحيطة به من بيوت، والوادي فكانت التوسعة بشكل متناسق هندسيًا.

أوضحت كذلك أن هناك فرق بين عبد الرحمن الداخل، والناصر؛ فالأول كان أمير، والأخير كان الخليفة، والفرق بين الإمارة، والخلافة، والفرق كذلك بين أندَّلُوسيا، وبين الأندلس؛ فالأندلس هي أسبانيا، والبرتغال أما أندوليسيا أو أندولثيا؛ فهو إقليم الأندلس الجنوبي المكون من سبع مقاطعات كما وضحت أن توسعة المنصور؛ بالرغم من أنها الأكبر لكن كانت عواميدها ليست بجودة السابقة لها، إذ أن الجزء الملون بالأحمر في توسعة المنصور مصبوغ باللون الأحمر ليس كما السابق رخام لونه أحمر، وجاء دور الجزء الكنسي من المسجد، وأوضحت أن الكنيسة بدأت في بناءها بعد السقوط، ونصبوا المذبح ثم قاموا بتزيين كاتدرائية بحليهم، ورأينا جزءًا من الحُلي، والزينة لم أعِر اهتمامًا بذلك إذ إني حجزت تلك الجولة مضطرًا، وإن استفدت؛ ثم أشارت لتمثال لرجل يبدو كأنه (سان رافييل) ملاك المدينة الحارس؛

فأوضحت أن (سان رافييل) هو ليس الملاك الحارس لقرطبة لكنه.. قالت اسم فلم أهتم بهذا.

وفي نهاية الجولة قالت من الجيد الآن تزوروا المعبد اليهودي إن كان لديكم وقت غدًا؛ فهو لن يأخذ من وقتكم دقائق كثيرًا، وكذلك القصر الملكي.

وأنا أنظر لعواميد المسجد، وجدرانه تذكرت الغزال الفاسي، ورحلته هناك وربما نوردها في حكاية أخرى.

ذهبت وذهبنا كل يرى ما يحلو له حتى خرجت وصليت العصر وقبله الظهر في مسجد أمس نفسه وأرحت جسدي قليلًا فدخل عليَّ في المسجد رجل جزائري رحب بي حتى ظننت أنه من أهل تلك البلد فسألني عن بلدي قلت له: مصر، جلس وحكى لي أنه مهندس زراعي ويوجد هنا في قرطبة مهندسون زراعيون مصريون حيث حقول الزيتون، صلى ثم ودعني وذهب.

بعد عدة دقائق ذهبت أتجول بين الحي اليهودي، والبيوت العربية حتى وصلت لشارع مشهور في قرطبة معروف بشارع الزهور، وبعد قليل قررت تناول غدائي.

ذهبت للمطعم الذي شربت به الشاي أمس، ودخلت إحدى قاعاته المسماة بأحد ملوك الأندلس ولأن وجبة الطجين المغربي قد أثرت في نفسي فطلبتها ثانية، وكانت في روعة سابقتها قبل أربعة أيام في إشبيلية.

كنت قد حجزت تذكرة لحفل فني للفلامنكو، وكان الميعاد في الثامنة، وتبقى وقت طويل على موعده، وتقريبًا الرحلة انتهت، ولم يعد لدي شيئًا آخر أفعله؛ فذهبت إلى المسجد منتظرًا المغرب حتى إذا حان الوقت صليت

بمفردي، وبعد الصلاة بقليل جاء إلى المسجد ثلاثة فتيان أتراك صلى منهم اثنان، وانتظرهم زميلهم.

يا لغرابة الحياة، ويا لغرابة ما تشاهده.

بعدما فرغوا من الصلاة سلم عليَّ أحدهم ، وأبلغني أنه تركي، وجاء من إشبيلية أمس، وسيذهب غدًا لغرناطة، قلت له: مثلك أنا، وعرفته بنفسي ثم ودعنا بعضنا، وقلنا نلتقي غدًا في غرناطة.

باقي على الحفل ساعة؛ فقررت الذهاب إلى مقر الحفل، وقد كانت نفسي تعبت من تكرار المشي بين الأزقة نفسها.

فذهبت إلى المكان، ورأيتهم يجهزونه، وأخبرتني المُنسقة أني أستطيع الدخول.

بدأ الناس يتوافدون حاملين أكواب النبيذ، وزجاجات الجِعة المجانية مع التذكرة؛ فسألتني المنسقة: ماذا تريد أن تشرب؟ أجبت ببراءة: فانتا برتقال، وكانت مجانية أيضًا.

وأنا أنتظر الحفل كنت أمني نفسي بشيء مما سمعته في أغنية نادي إشبيلية أو بعض المقطوعات على مشغل اليوتيوب، ومع بداية الحفل جلست أستمع فلم أر شيئًا مما منيت به نفسي.

كان ذلك الحفل أسوأ عرض فني حضرته في حياتي، كانوا يقولون رقص الفلامنكو الغاضب الذي يُعبر عن مأساة الأندلس، والموريسكيين لكني رأيته رقصًا ضاحكًا.

انتهت الحفلة غير مأسوف عليها ربما كان الأسف على مبلغها الزهيد.

بعد نهاية الحفل قفلت راجعًا سكني.

نمت، وجهزت حالي غدًا للرحيل.

جمعت أغراضي، ورصصتها عشوائيًّا كما العادة.

استقلت الحافلة من أقرب نقطة؛ ثم مشت الحافلة بمحاذاة الوادي الكبير كأنها ذهبت لأودع المسجد والقنطرة ومدة وجيزة وصلت لمحطة القطارات.

ذهبت لمحطة القطار؛ لأضع حقيبتي في الأمانات، وأذهب إلى الزهراء فما زال هناك ساعتان ونصف أو أكثر.

أخذت تاكسي لمدينة الزهراء؛ فدخلت متحفًا يَضم بعض الأواني القديمة بعد دقائق مللت مما رأيت، وقررت العودة.

عند الخروج قالت لي موظفة المتحف: لدينا عرض صوتي عن الزهراء، ولدينا أيضًا حافلة تذهب لترى الزهراء عند الجبل.

استقللت الحافلة، وذهبت مسرعًا فالرحلة تأخذ ساعة، والساعة كثير حتى ألحق بقطاري

ذهبت لأعلى الجبل، وتجولت بين أطلال الزهراء، ورأيت المدينة التي تمنيت لو سكنتها يومًا كوم خراب، وبعد وقت يسير رجعت من الجبل للمتحف، وعدت مسرعًا للمحطة مستعدًا لزيارة المدينة ربما هي الأهم كما يقول محبو الأندلس.

حكاية التاريخ

أحاول أن أختصر كثيرًا في هذه الحكاية؛ بالرغم من أنها الجزء ربما الأهم فحكايتها خمسمئة عام، وليس يومين كما حكايتي، لكن هذا الكتاب – إن قدر الله ذلك – ليس للتأريخ بل لعرض يسير لتجربتي بين الماضي والحاضر.

بدأت معرفتي بقرطبة من دراستي أيام المدرسة؛ لكن تلك كانت معرفة الاسم فقط؛ فكان ذلك الاسم كان يمر مرور الهواء في بعض مناهج التاريخ واللغة؛ كما يزين بعض أسماء الشركات حتى دخلت دراستي الجامعية، وبدأت الاهتمام بالكتب من جديد، وسماع محاضرات عن التاريخ، ولأن الأندلس كانت حقبتي المفضلة سماعًا وتخيلًا؛ فبدأت أقرأ عنها حتى علمت بمسلسل يُدعى (ملوك الطوائف) فشاهدته، وبالبحث عرفت أنه الجزء الثالث من رباعية لم تكتمل لكاتب مُبدع يسمى "وليد سيف" وهو دكتور جامعة بالأردن لديه أسلوب حواري في الكتابة لا توصفه كلمات.

شاهدت جزءها الأول المعروف (بصقر قريش)، والثاني (ربيع قرطبة)، وما زلت أنتظر آخر أيام غرناطة خاتمة الأجزاء.

وسمعت محاضرات، وقرأت مقالات، وتصفحت كتبًا، وتكونت عندي فكرة للمدينة قرطبة، وللأندلس عمومًا ليست كتلك التي ظهرت حين أتممت الزيارة.

دون إطالة؛ فحكاية التاريخ عندي لقرطبة تتشكل في الفتح ثم بني أمية، وعصر الطوائف ثم السقوط

الفتح

حكاية الفتح لا تعني لي سوى أن المدينة كانت مقر لحكم الولاة حتى عصر الفهري، ومنها خرجت جيوش عنبسة والغافقي؛ حتى فترة الاضطراب أيام سقوط أمية في المشرق بين توالي الولاة وصراع القيسية واليمانية حتى استلم الفهري بمساعدة الصميل، واستقرت الأوضاع نسبيًّا حتى ألقى الداخل حجر في بحيرة الأندلس الراكدة، والراقدة في سُبات.

الدَولَة الأمُوية

اجتاحت جحافل العباسيين الشام بعد العراق حتى قتلت آخر خلفاء بني أمية (مروان بن محمد) بمصر؛ ثم تفرغت لتصُب غضبها على ما تبقى من الفارين منهم، وكان من ضمن الفارين هو (عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك).

ذلك الفتى كان حفيدًا لهشام، ومات أبوه وهو صغير فكفله جده، واعتنى به حتى حدثت نكبة أبناء هشام على يد "يزيد الفاسق" فاعتزل شؤون الدولة، ولما كان انتقام العباسيين واصل الفتى هروبه منهم لفلسطين؛ فسيناء؛ فالفسطاط؛ ثم اتجه نحو المغرب العربي، وهناك استقر في القيروان عند عبد الرحمن الفهري الذي غار منه؛ فهرب حتى وصل لأطراف المغرب عند أخواله.

وقرر أن يتجهز لدخول الأندلس.

فبعث رفيقه في الرحلة لمخاطبة موالي الأمويين في الأندلس حتى هيئوا له الأمر، وجاءت لحظة الدخول وتغيير الاسم.

لكن كيف تهيأ الأمر؟؟

بل كيف كان الأمر!!!

الأمر كان قبل سنوات من تلك الحادثة بأن ذهب رجل يُدعى "الصميل بن حاتم" - حفيد "شمر بن ذي الجوشن" قاتل الحسين - وهو زعيم لقبائل بني قيس في الأندلس لرجل من فهر يُدعى (عبد الرحمن الفهري) - حفيد

عقبة بن نافع مؤسس القيروان - وقال له الناس لا تقبل بقيس أو يمن بل ربما تقبل فهر فلك الحكم، ونحن نعينك، وكان يقصد لنا الحكم، وأنت تتصدر.

حاول الفهري بأن يخرج من سيطرة الصميل لكن بين شدٍّ وجذب طوال سنوات جاء خبر فتى من بني أمية يطلب ملك أجداده؛ فعقلها الصميل، ووجد أن الفهري لا يجيد الحكم؛ فهو أسهل في اقتياده لكن ابن الخلفاء يريد ملكًا حقيقيًّا؛ فتواصل أنصار بني أمية مع اليمانية وكبيرهم أبي الصباح اليحصبي، وعزموا العقد على النصرة؛ فكان اللقاء مع الفهري؛ وقيس في المصارة، وانتصر الداخل، وسمي بذلك لأنه أول من دخل من أبناء الأمويين.

بعد استتاب الأمر، وتثبيت أركان الدولة رحل الداخل ليجيء ابنه (هشام الرضا)، وكان الرضا كما اسمه؛ فكان تقيًا وَرِعا حتى خلفه ابنه الحكم، وكان قاسيًا؛ فسمع لأتباعه الذين أخذوا يقلبونه على العامة، وثار عليه العامة – أيا ما كان من بدأ منهم– فخرج العامة من ربض شقندة، والربض هو الضاحية، وشقندة هو الاسم فلما خرجوا حرق الحكم بيوتهم فانتشر الاضطراب ثم الفوضى ثم النهاية، وقبض عليهم، ونفيهم خارج الأندلس فذهبوا إلى الإسكندرية....

يُقال إن الرجل ندم أخر حياته، وأيًّا ما كان فقد مات وماتوا، وخلفه ابنه (عبد الرحمن الثاني) يعرف في الكتب بالأوسط، وكان عهده عهد عمران، وحضارة.

توالى الأمراء حتى وصل للحكم شاب يُدعى "عبد الرحمن"، الذي لُقِّب بعد ذلك "بالناصر"، ويُعدُّ مجدد دماء الأندلس، وباعثها بعد الداخل؛ فكانت قبله في حال يُرثى لها حتى انتشلها من قاع الضياع.

دون الدخول في تفاصيل الحال في قرطبة يكفي أن نقول إن الناصر لم يكن يسيطر إلا على قرطبة، وانتهى حكمه بعد خمسين عامًا، وهو ملك الجزيرة، وأمير المؤمنين خليفة الإسلام.

ولا يأتي ذكر الناصر إلا ونذكر معه الزهراء مدينة الحكم، وتوسعة المسجد أما المدينة فما بقي منها إلا الأطلال؛ كما قلت في أول تلك الحكاية، والمسجد يشهد له.

انتهى حكم الناصر، وهو أعظم ملوك العالم ربما في وقته، وذهب إلى حيث الكل يذهب؛ تاركًا ابنه الحكم الثاني المُلقب "بالمستنصر"، يحمل ثقل الأمانة حتى نهض بالعلم والأدب، وبعد وقت قصير مقارنة بأبيه، وجده الأكبر الداخل، رحل إثر إصابة بالشلل، وترك للحكم صبيًا يُدعى (هشام)، وأمه (صبح)، وأمينه (المصحفي)، وفتى طموح يسمى "محمد".

اتفقت الأم مع الحاجب المصحفي، والفتى محمد على الوصاية ثلاثتهم على الخليفة الصبي حتى لا يضيع الحكم من ابنها؛ فأضاعت الحكم من بني أمية كلهم.

كان (محمد بن أبي عامر) فتى طموح له رأي، وحب للسلطة؛ فتخلص من الحاجب المصحفي، وسجن الصبي، وأمه بالزهراء، لا يخرجان منها، وحكم البلاد باسم (أمير المؤمنين) (هشام بن الحكم المؤيد بالله)، وتلقب "بالمنصور"، وتخلص من كل خصومه، وأذلَّ أعداء الأندلس والإسلام، وكان

الملوك من كل أوروبا يهابونه حتى قيل إنه أفضل ملوك الأندلس على الإطلاق، وهناك من قال بل بعد الداخل، والناصر، وهو أي يضيف لهم الحكم فيصبح رابع أربعة.

بموت المنصور بعد ما يقرب من ثلاثين عامًا خلفه ابنه "المظفر" (عبد الملك) حاجب دولة أمير المؤمنين (هشام بن الحكم المؤيد بالله)، والخليفة ما زال في قصره، والمظفر يغدو، ويروح حتى قتل غيلة، وقيل من قتله أخوه غير الشقيق (عبد الرحمن شنجول) الذي مسك الحجابة؛ فأساء السيرة، ولأنه لم يكن كأبيه وأخيه؛ فهان على الناس أن يقتلوه للهوه، ولأن جده ملك النصارى شنجول، وهنا دبت الفوضى، وهدمت الزاهرة !!!!!!!!!!

ما هذه الزاهرة ؟؟؟؟

الزاهرة: هي مدينة حكم بناها المنصور لتعادل الزهراء أو لتمحو ذكرها.

على أي حال انتهت دولة المنصور التي أسسها على شفا ظلم هار، فهوت بالأندلس في نار الفوضى، وجاء خليفة وراح آخر، وظلوا اثنين وعشرين سنة يروحون جيئة وذهابًا حتى اتفق الناس على إلغاء الخلافة، وإنشاء مجلس رئاسته قرطبة، ويكون الحكم لكل مدينة من قبل حاكمه، وقرطبة واجهة الحكم أشبه بالفيدرالية ولأن الدستور لم يكن مكتوبًا، ولو كتب لانتقض بقوة كل مدينة فبعد سنين، وربما شهور قامت كل مدينة بمملكة، واستقلت حتى تصارعوا، وضاعت الأندلس بين الممالك، ونشأ العهد المشهور بملوك الطوائف في اثنين وعشرين مملكة يتصارعون يسخر بهم التاريخ من حال بعض القوم.

مُلُوك الطَوائِف

بعد تقسيم الأندلس بين المسلمين في أغلبها، والمسيحيين في شمالها، وتقسيم الأغلب بين ملوك المسلمين صارت قرطبة قاعدة للحكم اللامركزي شكليًّا بقيادة قوم يقولون لهم بني جهور.

فكان (أبو الحزم بن جهور) هو حاكم قرطبة، ورئيس مجلس الجماعة، ولما مات خلفه ابنه الذي لم يلبث أن مرض؛ فقسم شؤون مملكة قرطبة بين ولديه؛ فطغا أحدهم على الآخر واستبدَّ بالحكم بإيعاز من "المعتضد" حاكم إشبيلية.

كانت قرطبة مطمعًا لكثير من الملوك الطامعين؛ للفوز بحاضرة الخلافة، وكان يحاصرها كثير من الملوك والممالك؛ فبطليوس وطليطلة يطمعان بها لكن كان المعتمد يتهيأ لها حتى أخذها خلسة بدهاء وزيره "ابن عمار".

دخل المعتمد إشبيلية، ومعه ابن زيدون، وخرج منها ابن زيدون إلى قبره تاركًا المعتمد، وبعد مدة ترك المعتمد ابنه فيها إلى إشبيلية؛ ليذهب الابن للقبر، فقد طمع ملك طليطلة فيها، وهي تحت حكم الفتى الصغير؛ فأخذها منه لكن لم تكون دون مقاومة، وللمقاومة ضحايا، وكان أولى ضحاياها، وإليها الجديد؛ ثم عاد المعتمد ثائرًا من حاكم طليطلة المقتدر، واسترد المدينة وبقيت معه إلى أن انتهى حكم بني عباد، ودخلت في حكم المرابطين، ومن بعدهم الموحدين.

السُقُوط

في أقل القليل علينا أن نوضح أن آخر عهد الموحدين انهزموا في معركة تسمى (العِقاب)؛ فانتهت أي قوة للمسلمين في الأندلس، وأضحت ممالك في حال لا يقل سوءًا عن حالها عهد الطوائف، وتوالى سقوط المدن واحدة تلو الأخرى حتى جاء دور قرطبة عام 1236 ميلاديًّا على يد مملكة قشتالة، وملكها "فرناندو" الثالث، وانتهت الحكاية.

غِرنَاطَة

رُمانة الأندلس، وريحانتها.

مَعشوقة بني الأحمر.

مدينة البيازين.

مدينة قصر الحمراء.

مدينة البشرات.

مدينة عائشة، وولدها الصغير.

مدينة الزغل، وأخيه أبي الحسن.

مدينة الغالب، وابنه الفقيه.

ونعبر سنوات للخلف حتى نراها مدينة لبني زيري، وأشهرهم (باديس بن حبوس)؛ ثم بعده حفيده (عبد الله بن بلكين بن زيري).

وقبل ذلك لم تكن شيئًا.

إذ أسسها "الزيريون"، وكانت قبل ذلك تدعى "ألبيرة" على اسم كورة قريبة التي تعني مركز المدينة التي أصبحت غرناطة.

بشيء بسيط من التاريخ والجغرافيا والطعام متداخلين امتزاجًا؛ لنعرف كيف أتت غرناطة.

كانت تلك المنطقة الشرقية من جنوب الأندلس تحتوي على عدة مدن أشهرها مالقة وألمرية وألبيرة، وكانت ألبيرة مركز حكم إداري فيما يعرف بالتقسيم الإسلامي بكورة.

لما ظهرت الطوائف، وبدا كل مستبد متشبثًا بإمارته حكم بنو زيري مالقة، وألبيرة؛ لكنهم أسسوا مدينة ستصبح فيما بعد ذلك بقرنين، وبضع عقود مأوى الأندلس الوحيد.

كانت غرناطة.

هذا عن التاريخ، وجغرافيا المكان.

ماذا عن الطعام، وكيف يمتزج بهما.

بالبحث في اللغة الإسبانية نجد أن كلمة غرناطة تترجم للاتينيات اللغات، ومعها الإسبانية لجرانادا.

وتلك الجرانادا بالعربية تعني الرمان، والرمان بالإنجليزية تعني بومي جراناد.

ويطلقون على غرناطة رمانة الأندلس مع شهرتها بشجر الرمان؛ كما وضح صاحب خريف شجرة الرمان في روايته عن السقوط، وكذلك عديد من المدونين يلمحون بذلك.

والرمان طعام أهل الجنة، وعندي من أشهى الفواكه بالرغم ما تجد فيه من صعوبة.

لا أعلم سند تسمية غرناطة بذلك الاسم نسبة للرمان لكن هي قصة على ما تبدي من لطف لا يمنع من ذكرها.

وهنا انتهت المُقدمة، وتبدأ الحكاية.

دنا وقت القطار الذهاب لغرناطة.

خرجت مسرعًا من الزهراء مستخدمًا تطبيق أوبر باحثًا عن سيارة تقلني المكان نفسه محطة قطار قرطبة إذ تواجهها محطة الحافلات المركزية التي كنت قد أودعت بها حقيبة سفري أمانة لدى خزائنها لتيسير رحلتي السريعة لمدينة الزهراء.

جاء بعد وقت قصير سائق السيارة الذي تصادف أنه نفس الشخص الذي أقلني للزهراء ركبت سيارته المرسيدس ثانيةً مجددًا، إعجابي بها، وبالسيارات الأوبر في إسبانيا عمومًا.

في أقل القليل أدركت غايتي، وقد تبقى ما يرنو من ربع ساعة حتى موعد القطار الذاهب لغرناطة.

ذهبت مُسرعًا حدَّ الهرولة حتى أخذت حقيبتي؛ ثم هرولت ثانيةً للاتجاه المقابل نازلًا نحو رصيف القطار.

وقد تبقى على موعد القطار بين العشرة، والسبعة.

جلست على مقعدي الأثير، واستعددت لمراقبة الطريق، والذي قطعه القطار في ساعة ونصف قاطعا 202 كيلومتر؛ غير أنه توقف في عديد من المحطات لا أذكر منها إلا مدينة (لوشة) التي كانت مسقط رأس (لسان الدين ابن

الخطيب) ذي الوزارتين صاحب الإحاطة، والمعروف بموشح جادك الغيث، وربما أنتقيرة، وأظنُّ أننا التقينا بجيان في بداية الطريق.

سار القطار في طريقه محاذيًا الجبال، والسهول ثم مخترقًا؛ لإحدى الجبال في مشهد لم أكن أتخيل أن أراه في نفسي بعد رؤيته في التلفاز.

غير أنه لم يلبث إلا ثواني حتى خرج لكن كانت مشاهدة ممتعة يتخللها تخيلات عن سقوط الجبل أو تعطل القطار.

بالبحث في الخريطة علمت أن غرناطة تدنو؛ فتدنو، ودقائق تفصلني على الدخول.

بعد وصولي إلى محطة غرناطة، وخروجي من القطار رأيت مشهد لجبل البشرات يكسوه الجليد كما تحب أن تراه.

خرجت من المحطة، وبحثت عن طريقة للوصول لسكني الذي اخترته في البيازين على الرغم من أنه كان أغلى مبلغ دفعته للسكن في الليلة، ولكن لأكون أمينًا كان يستحق.

يعيبه شيء واحد فقط ضعف شبكة الإنترنت به.

مشيت من المحطة باتجاه المدينة بضع دقائق إذ استقل الحافلة حتى توصلني للبيازين.

وكنت قد تواصلت مع صاحبة السكن فقالت: الأفضل أن تأخذ تاكسي.

لكن لم أتحمس لذلك حيث فضلت التجول بالحافلة؛ ثم الصعود للبيازين مشيًا على الأقدام.

تأخرت الحافلة.

فذهبت لمكتب استعلامات لأسأله عن تذكرتي للحمراء، التي كانت غدًا لكن بها أحقية الارتحال بحافلات المدينة مجانًا، وكذلك زيارة الكاتدرائية، وبيت الظفرة ودار الحرة وغيرها، وكذلك الحافلة السياحية.

وبعد مساعدة منه ومني؛ للوصول للترجمة المناسبة باستخدام مترجم جوجل توصلنا لأن التذكرة صالحة من الغد.

وأقول لكُم أني لم استفد من تلك التذكرة إلا في الحمراء، وبيت الظفرة.

وضاع كل ما بها من تسهيلات، وبشكل أدق لم أهتم بها، وبشكل أكثر دقة طاقتي لم تكن تستوعب كل تلك التسهيلات فضلًا عن الوقت.

ويأتي السؤال: لماذا حجزت تلك التذكرة بكل مميزاتها؟

وتكون الإجابة: لا شيء منطقي.

كان عليَّ تقديم ورق، وإثباتات، وحجوزات؛ لبرنامج رحلتي، ولأنها التجربة الأولى، ولا أريد أي معوقات؛ فحجزت عدة تذاكر لمزارات معينة منها قصر الحمراء الذي وجدت بالحجز باقة من الحجوزات الجانبية، والتسهيلات التي لم أدر هل سأستطيع فعلها كاملة أم لا.

جاءت الحافلة، وركبتها، وبعد قليل نزلت عند محطة إيزابيلا الكاثوليكية.

اسم ضخم وأظنُّ أنهما يستحقان النسبة؛ فتنسب هي للكاثوليك الذين أجروا محاكم التفتيش، وينسب الكثلكة لها حيث كانت أهم ملوك إسبانيا.

نزلت وذهبت بالجهة المقابلة للشارع، وبدأت في الصعود حتى وصلت لمفترق طرق به صعود وهبوط؛ فسألت أحد الناس بالعربية: أين البيازين؟ فقال: هذه هي البيازين؛ بلكنة مغربية.ك

بمساعدة الجوجل ماب واصلت المسير صعودًا حتى دنوت من محل إقامتي.

وبعد محادثة مع صاحبة المكان وصلت أخيرًا للسكن الذي كان بأعلى البيازين، وكان غرفة كبيرة فيما يعرف باستوديو بالدور الأرضي تحتوي على سرير في آخرها حيث لا يوجد شبكة اتصال بالإنترنت، ولا الهاتف إلا فيما ندر؛ ثم دولاب صغير مقابل الباب، وبعدها أريكة صغيرة، ومقابلها دفاية كهربية يتبعها حمام ثم في أخر الغرفة مطبخ به حوض لغسيل الأطباق، وبوتاجاز كهربائي، وغسالة ملابس أوتوماتيكية، وبخارج الغرفة مثل ساحة بها عدة غرف، وبالدور الأول غرفة أو اثنين، وباقية عبارة سطح ترى منه الحمراء تتلألأ.

صليت الظهر والعصر؛ مستقبلًا القبلة ثم أرحت جسمي قليلًا الذي قد بدأ يتهاوى بتراكم التعب.

بعد مدة لا أذكرها كان موعد المغرب قد دنا من نصف ساعة نزلت من أعلى البيازين نحو المسجد الذي عرفت عنه أنه بني على نفقة حاكم خليجي راحل ويسمى باسمه، ومما يميزه أيضًا أن الأذان يُسمع منه في الشارع.

على العموم تشعر في البيازين أنك في حي للمسلمين ربما لذكرياته أو لمتاجره التي تعج بالمغاربة والعرب.

دخلت المسجد وانتظرت الأذان الذي يسمعه أهل البيازين.

جاء وقت الأذان وهتف به الإمام -الذي بدا عليه أنه مغربي من خلال ما يلبس- خارج المسجد؛ ثم نادى لإقامة الصلاة بداخله، وصلينا المغرب؛ ثم انثنيت خلف أحد عواميد المسجد؛ لأصلي ركعتي العشاء.

بعد أداء صلاة اليوم بدأت في التجول بين أزقة البيازين نزولًا في محاولة لإيجاد مطعم الذي تعج به البيازين بصفته الحلال وغير الحلال لكن ما إن خرجت من البيازين حتى وجدت مطعم إسباني بمقابل البيازين.

دخلت المطعم، وأريت مدير النوادل صورة لوجبة إسبانية هي الجمبري (القريدس) المقشر في داخل إناء به حساء الخل والشيليز (الفلفل)، وبه قطع من الثوم.

فقال: نعم موجودة، فسألته أن يطبخها دون وضع نبيذ.

فلم يفهمني..

وأشار لأحد مساعديه الذي يدعى ديفيد؛ فجاء وحدثني، وطلبت منه تلك الوجبة دون أي مواد كحولية.

لم يكن لدي هاجس من الكحول كما يظن الكثير؛ بل لمعلومات سابقة تقول إنهم يضعون قليلًا منه في الطعام فكانت تلك مخاوفي ليس إلا فلا ورع يزيد، ولا هاجس يخيف.

مجرد الاحتياط ففي الحيطة النجاة، ولا أريد أن أتذوق شيئًا من هذا.

تحدثت مع ديفيد قليلًا؛ فأخبرني أنه جيبسي (أي غجري) فقلت له: إجيبسيان، قال: لا جيبسي

قلت : أعلم أن بأندلوثيا الكثير من الغجر، ورشح لي عصيرًا ليس به أي شيء مما أخاف وأحذر.

وبعد الانتهاء من الطعام الذي لم يكن جيدًا، ولا يستحق عناء المعاناة في التحري والبحث والشرح والإفهام، رجعت ثانيةٍ نحو البيازين.

البيازين في جزئها السفلي يكثر المتاجر من مقاهي ومطاعم ومحلات الصناعات الجلدية والتذكارات.

بدأت في التجول بين محلات التذكارات لشراء الهدايا التي تحمل روح الأندلس أو صورتها؛ لأهديها لمن يحب من أصحابي.

فذهبت لأحد المحلات، واشتريت منه عدد لا بأس به من الميداليات، والصور الجرانيتية التي تلصق على المعادن كالثلاجات مثلًا، وبعض البراويز في حسبة كلفت 55 يورو بعد الخصم خصم الرجل لي منها خمسة أخرين؛ أملًا منه في دعايا له عند أصدقائي.

وفي الحقيقة هو يستحق.

لكن لا أعلم اسم المحل، وبمجرد الوصف لا يكفي؛ فالكل يشبه بعضه في تلك المحلات.

بعد ما أخذت قررت الصعود، وإذ بي أفاجأ بمحادثة تأتيني من صديقي الذي سبقني بأسبوع يسألني حقيبة كتف جلدية، ويبعث لي بمكان لأحد المحلات المتخصصة في الصناعات الجلدية بالبيازين.

قفلتُ عائدًا للأسفل.

وأسمع صوتًا: يا لهوي.

قلت له: أنت مصري؟

قال: نعم، عرفتني من يا لهوي؟

قلت : نعم.

قال: أنا هنا سائق أذهب برحلات لمالقا، وألمرية، وغيرها وأعطاني رقمه عساني أحتاجه؛ ثم أرشدني لمحل يبيع مصنوعات جلدية جيدة لشخص إسباني مسلم يدعى "أيوب".

في أخر البيازين.

فذهبت ناحية متجره الذي يبعد كثيرًا أخر البيازين في أسفلها، ولما وصلت عنده سألته عن الحقيبة؛ فلم تعجب صاحبي أي شيء منها، فقمت؛ لكن أعجبني عنده بعد الملصقات الخشبية، والميداليات التي صنعت من شجر الزيتون.

ولأني لا أعرف شيئًا عن هذا، ولا أميل للتخوين؛ فصدقت الرجل، واشتريت عددًا منها بجانب حزام جلدي، وقفلت عائدًا للأعلى؛ فالأعلى حتى قمة البيازين، واشتريت لصديقي حقيبته المرجوة.

غير أني وأنا أصعد وأنظر إلى البيازين ببيوتها كما تخيلتها تمامًا حين وصفتها (رضوى عاشور) في رائعتها "ثلاثية غرناطة".

خاصة في تلك المشهد الذي تخرج فيه سيدة قشتالية لتسبّ (عليّ ابن مريمة) عندما طلب من ابنها اللعب معه.

ما أروع الوصف، والواصف؛ لكن كل تلك الروعة لم تكن إلا بروعة الموصوف.

هذه هي البيازين.

هنا أبطال الثلاثية، وخريف شجرة الرمان.

هنا روح الأندلس الباقية.

هنا عشق يأبى النسيان.

هنا البيازين.

هنا ثمالة غرناطة.

ذهبت لغرفتي، وصعدت لسطع البيت، وأنا أنظر إلى الحمراء شامخة.

هناك الحمراء عالية أعلى من مراسيم البابا، ومحاكم التفتيش، وجرائم الكاثوليك، وهامة الخنزير.

وانتهى أول أيام غرناطة.

فِي مَدخَل الحَمرَاء

في تمام التاسعة من صباح يوم الأربعاء الموافق 20 نوفمبر 2019، استيقظت من نومي شوقًا لتلك الزيارة المهيبة التي تعد الزيارة الرئيسية لكل من جاء إسبانيا عمومًا، والأندلس على وجه الخصوص.

خرجت في تمام العاشرة؛ حاملًا حقيبة الظهر التي تحوي أي باد عرفت أن له فائدة لاحقًا غير تسليتي.

كان الطريق للحمراء قد بدا معقدًا من حيث مواصلاته؛ فلم أربك نفسي بالبحث، وطلبت أوبر توفيرًا لنفسي عناء التحرك بين المواصلات، والمشي والصعود؛ لأعلى التلة حيث تقبع الحمراء.

في وقت ليس بكثير يرنو من 10 دقائق، وصلت لمدخل الحمراء، وأشار لي السائق أن عليَّ المشي دقيقة وأشار إلى الاتجاه.

وصلت لمكان التذاكر، وأبرزت تذكرتي حتى سمحا لي بالدخول.

ذهبت إلى مسؤولة التذاكر أسألها عن المرشد الصوتي الناطق باللغة العربية؛ فقالت: عليك تأجيره بمبلغ 7 يورو، ويُحجز مبلغ من بطاقتك الائتمانية حتى ترجعه لنا في نفس المكان الذي طلبته منه في أخر اليوم.

أخذت ذلك الناطق الصوتي على مضض، لكن للأمانة يستحق خاصة أنه باللغة العربية.

قمت بضبط إعدادات اللغة، وانطلقت نحو مناطق القصر واحدة تلو الأخرى.

لم يكن ينتظرني مرشد سياحي أو بالأحرى مرشدة ألاقيها عند مدخل الحمراء تحكي لي تاريخ أجدادي، فقد استبدلوا بتلك الفتاة مرشدًا آخر يجعلك تسرح في البنيان لا الفتاة.

انطلقت نحو هدفي أو بالأحرى أهدافي لأن قصر الحمراء ليس قصرًا كما قصر دولمة بهجة مثلًا هو أقرب لأن يكون مدينة حكم، وكذلك قصر المورق، وطوب كابي بإسطنبول لكن القصر كان على مساحة شاسعة يتميز ليس فقط بكونه مدينة للحكم أو مركزًا للحكومة النصرية بل كان به ما به من الأشياء التي تبدو غريبة عليَّ؛ فكان هناك مكان الحرس، وهو الذي يُدعى بالقصبة، ومكان للصيف حيث جنات العريف، ولكل تقسيماته حتى أن منحدراته كان تحتوي على مجاري لمياه المطر تنزل في صهاريج معدة للتخزين.

وقبل الدخول في إيجاز بسيط عن أشهر أماكن القصر دعونا نعرف من هم سكانه النصريين.

قبل سقوط الأندلس بقرابة 250 سنة تقلد الحكم في غرناطة (الغالب بالله محمد بن يوسف بن الأحمر) سليل (سعد بن عبادة الخزرجي)، والمكني "بأبي عبد الله" كعادة معظم ملوك بني الأحمر يسمون بمحمد، ويكنون بأبي عبد الله؛ كما حال ابنه "الفقيه" وحفيده المُلقب "بالمخلوع"؛ حتى أنه قد وصل للحكم من تلك السلالة ثلاثة عشر حاكمًا بنفس الاسم واللقب، وكان

أخرهم الصغير حتى استسلمت غرناطة للملكين الكاثوليكيين في مثل هذا الأيام منذ 529 عامًا.

كان لبني الأحمر حكايات وأسمار وأباطيل ربما

لم يكونوا أُناسًا عاديين؛ بل كانوا أولئك الذين أختارهم الله ليحافظوا على غرناطة، وفي رواية أخرى؛ ليخونوا الأندلس.

بغض النظر عن اعتقادنا فيهم؛ لكن المؤكد أن تاريخهم كان فيه الكثير من الخنوع للنصارى القشتاليين.

يقال أن بني الأحمر سموا بذلك لأن ملكهم الأول كان (أحمر الشعر)؛ فورثوا الاسم والصفة، كما كان لم يخيل لي أن قصر الحمراء سمي بذلك نسبة للهضبة التي بني عليها ذات اللون الأحمر إذ كنت أظنه منسوب للحكام.

على أي حال بمحاولة للإيجاز في تاريخ بني الأحمر -مثيري الجدل- نعلم أن فترة حكمهم مرت بالكثير من الانقلابات الداخلية، والصراع على الحكم؛ غير أنهم أوائلهم كانوا أكثر حظًّا في غفلة مملكة قشتالة عنهم؛ لأنه القشتاليين كانوا في صراع مع أراجون غير أن نتيجة تلك الصراعات الداخلية حمل أوزارها في الأخير الفتى وعمه.

حيث اشتد الصراع بين أخر محمدين في الأسرة أبوي عبد الله الصغير، والزغل.

وصدق الله يحملوا أوزارًا مع أوزارهم.

فكان السقوط بعد هروب الزغل، واستسلام الصغير تجسيد لنهاية أعظم حقبة للمسلمين في تاريخهم العظيم.

للتوضيح أيضًا أن مملكة غرناطة لم تكن تلك المدينة فقط؛ بل كانت تشكل الجزء الشرقي من إقليم الأندلس الحالي، وتتابع سقوط المدن حتى انتهت في 02 يناير 1492.

بالعودة للوراء ثانية لعهد المؤسس الذي رجع منتصر مع حليفه القشتالي في حصار أشبيلية حيث ناداه الناس "بالغالب"؛ فخجل، وقال: لا غالب إلا الله، وجعلت شعارًا لبني الأحمر، ويُقال إن سبب تسميته "بالغالب" هو انتصاره على بني هود في الصراع على المملكة الجديدة.

أيًا ما كان الصواب فهذا ليس تأريخًا لحقبة بقدر ما هو توضيحًا لها.

فليست القصة الأولى للذم ولا الأخرى للعذر، وكلاهما ليسا للتأريخ؛ بل لأن الشيء بالشيء يذكر، وخزي الغالب في حصار إشبيلية ثابت، ومذموم عليه سواء سمي الغالب فيها أو قبلها.

المهم بدأ الغالب بناء سور حول هضبة يُقال حمراء اللون، ومن ثم بنى قصبتها التي تطل على حي البيازين لحماية المدينة.

وتتابع على بناء قصر الحمراء عصر تلو عصر، وملك بعد آخر حتى أتم بنيانه بالصورة التي عليها الآن تقريبًا في عصر (أبي عبد الله محمد الخامس) "الغني بالله"، وقِيل أبيه (أبي الحجاج يوسف النيار).

على كل حال بدأت رحلتي داخل القصر، وكان أول ما صادفت المسجد القديم للقصر، وكان مغلقًا ثم قاعة الإمبراطور شارل الخامس، وهذا كان إمبراطورًا للنمسا من ناحية أبيه، وملكًا لإسبانيا من ناحية أمه.

كان ذلك القصر قد بناه شارل عام 1526 دائريًّا، كما هو حال الكولوسيوم بروما؛ لكن كانت الزخرفات، والسمت المعماري ينتميان للطراز الإسباني فيما يبدو لي.

والجدير بالذكر أن ذلك الملك أو الإمبراطور كان وريثًا، وحاكمًا بعد ذلك لكل من جزيرة أيبيريا بما تملكه في أفريقيا، والأمريكتين، والنمسا، وأجزاء من شمال إيطاليا، وجزء من فرنسا، وهولندا، والمجر، وجزء من ألمانيا، وقد سُميت الفلبين على اسم ابنه الملك "فيليب الثاني".

وحفيده فيليب الثالث الذي أصدر قرارًا بطرد الموريسكيين من الأندلس.

بعد خروجي من القصر أو الساحة أيًّا ما كان اسمها، ذهبت لبيوت بني سراج وهي أطلال لبيوت كانت تسكنها بني سراج وزراء، وليس بها أي شيء يذكر سوى الحدث نفسه إذ أن نفوذ بني سراج بلغ بأن يخصص لهم بنو الأحمر مكان للسكن داخل الحمراء.

ذهبت بعد ذلك نحو القصبة التي تحمي الحمراء كما يدعون.

وكانت جيدة البناء صلبة الجدران، وبها كثير من الممرات، ويقول هناك غرف تحت الأرض تستخدم كسجن للجنود الأبقين.

صعدت أعلى القصبة مستكشفًا إياها ناظرًا لغرناطة من جدرانها العالية، وبعدها بقليل دار حديث بيني وبين فتاة تركية وأختها، سألتني عن شيء ما فحييتها بتحية الأتراك "هوشجلدن".

فردت التحية، وسألتني كيف عرفت أني تركية، فقلت لها: عن طريق غطاء شعرك الذي ترتديه التركيات، وأجبتها عما تسأل، وذهب كل منا لحال طريقه حتى التقينا أعلى القصبة ثانيةً بالقرب من البرج الحامي للقصبة؛ إذ يتكون القصر كله من سبعة وثلاثين برجًا كما يقولون؛ غير أني لم أشأ أن أتتبعهم غير أن ذاك البرج يتزين بأعلام الاتّحاد الأوروبي، وإسبانيا، وإقليم الأندلس، وبه جرس لا أتذكر سبب وجوده.

بعد قليل من المكوث نزلت من القصبة تاركًا ورائي كوم التاريخ، والفتاة التركية غيرها ميممًا وجهي ناحية قصور بني نصر التي هي درة التاج في قصر الحمراء؛ إذ إنها تحتوي على كثير ما يزينها، ولأهميتها جعلت إدارة قصر الحمراء زيارة تلك القصور بموعد محدد يجب الالتزام به أو هكذا نفعل، وكذلك مدة للزيارة لكن لا أظنُّ أن الناس تلتزم بذلك لإن المكان يسحر فلا تتركه حتي يطبع قلبك.

كانت القصور النصرية أو قصور بني نصر أية من خيال.

لا تستطيع وصف كل ما بها إلا بأنها تحفة من تحف الزمان.

ففيه بهو السفراء المعروف بقمارش الذي يؤدي لساحة تسمى فناء الريحان حيث بركة ماء تتوسط فناء مستطيل الشكل مزروع ريحان على جوانب البركة في أحدى جوانبه نافورة، والمواجه لها مدخل الفناء، ومنقوش على حيطانها آيات، وتبريكات، وتعلو البهو برج يسمى قمارش لحماية القصر.

وبجانب الفناء تجد فناء آخر يسمى بالسرو، يوجد في هذا الفناء بركة ماء مركزية محاطة بأسياج من الريحان، ويوجد في وسط هذه البركة بركة أخرى صغيرة بها نافورة من الحجر، ويستمد الفناء اسمه من نبات السرو القديم الذي نجده على التكعيبات، كما يوجد بالفناء شرفات تطل على البركة يمكن أن تصعد إليها من خلال سلالم موجودة في جوانب البناء.

وبجانب هذا يوجد قاعة رائعة تسمى بقاعة الأختين حيث يوجد لوحتين متطابقتين من الرخام مما أكسبها ذلك الاسم، ومن خلال تلك القاعة تستطيع الولوج إلى ساحة الأسود، وهي ساحة بها نافورة مكونة من 12 أسدًا يرمزون للوقت يعمل كل أسد بخروج الماء من فمه مشيرًا للتوقيت حتى حاول الإسبان معرفة سرها؛ فخربت، ولم تعمل حتى الآن كساعة، وبقيت كنافورة.

وتشير تلك الأسود إلى أنها رمز لحماية الملك "الغني بالله" إذ أنه بانيها، وكان قد تعرض لانقلاب ثم عاد للحكم، وقد كتب ابن زمرك قصيدة من(12 بيتًا) تشير للأسود تلك قال فيها :

تبارك من أعطى الإمام محمدًا...
مغاني زانت بالجمال المغانيا...
وإلا فهذا الروض فيه بدايع...
أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا...
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها...
تجلى بمرفض الجمان النواعيا....
يذوب لجين سال بين جواهر...
غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا....

تشابه جار للعيون بجامد...
فلم ندر: أيّ منهما كان جاريا....
ألم تر أن الماء يجري بصفحها...
ولكنها مدت عليه المجاريا؟...
كمثل محب فاض بالدمع جفنه...
وغص بذاك الدمع إذ خاف واشيا....
وهل هي في التحقيق غير غمامة...
تفيض إلى الآساد منها السواقيا...
وقد أشبهت كف الخليفة إذ غدت...
تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا....
فيا من رأى الآساد وهي روابض...
عداها الحيا عن أن تكون عواديا....
ويا وارث الأنصار لا عن كلالة...
تراث جلال يستخف الرواسيا...
عليك سلام الله فاسم مخلدًا...
تجدد أعيادًا وتبلي أعادي...

وفي كل جوانب القصور النصرية تجد لا غالب إلا الله، والعزة لله، القدرة لله، الملك لله، وغيرها من كلمات الاستعانة بالواحد الأحد، وقصائد تمجيد بني الأحمر.

خرجت من قصور بني نصر مشدهوشًا بما فيها؛ ثم أخذت قسطا من الراحة، وأنا أجلس على مكان بين القصور، والقصبة يسمونه (وادي الدارو)

ترى من خلاله البشرات، ومعظم قصر الحمراء، والبيازين، ونهر حدرة الذي يفصل بين البيازين والقصر.

وبعدها مشيت نحو جنة العريف حيث كانت جنة لكل من رآها.

تبدأ بعدة أفنية مزروعة بالريحان؛ ثم الدخول للجنة نفسها حيث ساحة مستطيلة يكثر طولها عن عرضها بالكثير بها بركة ماء تحيط بها تكعيبات الريحان، وفي المقابل لباب الدخول شرفة ترى منها الكثير من غرناطة.

وفوق باب الدخول شرفة بها نوافذ ترى منها جنة العريف، وباقي القصر.

عند تلك الجنة أخذت الأي باد الخاص بي، وقمت بالتقاط صور تذكارية مع الصفحات الشخصية لبعض أصحابي من عشاق قصر الحمراء، وهنا كان لذلك الجهاز دور مهم لبعض أصدقائي.

مكثت غير قليل في ساحة العريف؛ ثم عدت لمنطة (وادي الدارو) حيث ترى غرناطة في مشهد بديع يلخص حال الدنيا.

البيازين بالأسفل، وباقي أحيائها: العامة.

تعلوها الحمراء: السيادة والحكم.

ثم...

ثم فوق كل شيء البشرات؛ حيث الجهاد، وذروة سنام الدين.

على الرغم من أني لم أصعد للبشرات في تلك الرحلة بسبب ضيق الوقت، ووعورة الطريق لكن تحمل البشرات في قلب كل عاشق للجزيرة معنى كبير.

كانت البشرات مطلقة الزفرة الأخيرة لروح الإسلام في أرض الجزيرة، ولله در ابن بسام الشنتريني حين اختار لكتابه اسم "الذخيرة"؛ فكانت البشرات أخر ذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

إذ انطلقت من البشرات ثورة على ظلم الإسبان للموريسكيين؛ بقيادة ثلاثة من الموريسكيين الذين أخفوا إسلامهم، وهم (محمد بن أمية) وقيل إنه من سلالة الأمويين، و(فرج بن فرج) سليل "بني سراج" وزراء المملكة النصرية، وثالثهم (ابن عبو) ولأن كانت تلك القيادة تفتقر للحنكة السياسة؛ فضلًا عن التدريب العسكري الجيد، وبعد المؤن، والمعونات العسكرية، وتأخر وصولها من العثمانيين، وسلاطين المغرب، وبالعادة يجب أن يكون قائد؛ فقد دب الخلاف، وقتل ابن أمية؛ ثم تشقق الصف، وانتهت الثورة بعد أكثر من سنتين باستسلام المقاتلين، وأطلقت قشتالة بعدها بنحو ثلاثين عام قرار الطرد الأخير.

في تمام الثالثة بدأت سماء غرناطة بإفراغ مائها، وكنت قد فرغت من كثير من أركان القصر الزاهي.

أرجعت جهاز المرشد الصوتي؛ ثم جلست هنية عند بيوت بني سراج، وقد أمضيت أكثر من 4 ساعات داخلها، وللحقيقة لو أن شخصًا يفهم بالعمران، وفنونه لا يكفيه يومًا داخل جدران تلك المدينة الزاهرة.

مع اشتداد المطر شيئًا بسيطًا قررت العودة، وإنهاء زيارتي للقصر.

نزلت مع منحدر قيل أنه باب للخروج، وكان النزول منه صعبًا بعد الشيء مع المطر غير أني رأيت حافلة صغيرة تقل الناس فأشرت له بيدي، ولم استغرب نفسي بقدر ما استغربت السائق الذي وقف لي.

ركبت الحافلة، وأريته التذكرة التي يفترض بها خيار ركوب المواصلات غير أنه قال: لا، هذه لا تعمل.

فدفعت له يورو ونصف ثمن التذكرة حتى نزلت عند نهر "الدارو" أو "حدرة" كما يسمى بالعربية والذي رأيته مجرى مائي بسيط ليس نهر أو حتى ترعة به بعض الطيور، ترى من خلاله قاعة، ولو ألقيت حجرًا لسمعت صوت ارتطامه بالقاع.

مشيت باتجاه النهر حتى ذهبت لمكتب استعلامات سياحي أسأله عن بيت الظفرة حتى استفيد بأي شيء من تلك التذكرة.

أرشدتني سيدة أربعينية لمكان البيت، ومشيت مع المطر بمحاذاة النهر حتى وصلت للبيت ذاك، والذي كنت أظنُّه يسمى بالظفرة من النصر في معركة واهية لبني الأحمر ضد المسلمين الذين تفننوا في معاداتهم أو في خلاف مع قشتالة عادوا منه بنصر رخيص غير أني علمت بعد ذلك بكثير أن ذلك أهدته ملكتهم الكاثوليكية لأحد قوادها يدعى ب "هرناندو دي ثفرة" أو شيء قريب من ذلك.

بكل الأحوال لا يستحق البيت المكوث فيه أكثر من عشرة دقائق؛ فهو مكون من دور أرضي، ودور أول على شكل مستطيل كعادة البيوت هناك به حوض، والدور الأول على نسق قصور النصريين غير أنك تستطيع أن ترى الحمراء من الدور الأول بشكل بديع.

يقف عليه موظف لتحصيل التذاكر أو التأكد منها لو أخترت وظيفة أعملها لأخترت تلك الوظيفة حيث أنك لا تعمل شيئًا بها.

خرجت من البيت عائدًا نحو البيازين، وعند مدخلها الجنوبي رأيت مطعمًا عربيًا، وقد استبدَّ بي الجوع؛ فطلبت منه طبق "باييا"، والتي لم تسمن، ولم تغن؛ فحصلت بعدها على شطيرة فلافل شامية، وعلبة مياه غازية.

صعدت نحو حجرتي أعلى البيازين، وقبل مكان الإقامة، وجدت مكانًا في البيازين ترى منه الحمراء؛ فجلست فيه استريح، واتأمل شموخ الحمراء.

عدت للبيت صليت الظهر، والعصر ثم المغرب، والعشاء.

وانتهى فعليًّا برنامج غرناطة، وبقي منه يوم غدًا لمالقة حيث تجربة جديدة.

تحدثت مع أقاربي لأخبرهم بجمال الحمراء، وروعة البيازين، ونظرة الأسود في بهوها.

قبل أن أختم ذلك اليوم، أحكي لكم ببساطة كلمة البيازين ومن أين اشتقت.

دون تدقيق في التاريخ هناك أربع مقولات لسبب التسمية أظنُّ أن كلهم أسطوري:

1- نسبة لأهل بياسة الذين سكنوا تلك المنطقة.
2- نسبة لكونهم بائسين فتحول للبيازين.
3- نسبة للباز هو الصقر حيث يُقال إن أهل البيازين يشتغلون بتجارة الصقور.
4- وآخرهم مُضحكة نسبة للبياضين أي نقاشين.

في الحقيقة تلك الأربع سمعتها خلال رحلتي الثقافية مع الأندلس طوال 16 عامًا من أناس موثوقين، وغير موثوقين فلا تأخذ تلك المعلومات على محمل الجد؛ فهي أساطير طار بها شغف المدونين حول الأندلس، ولكلٌ منها ما يؤيدها، وما يدحضها.
آخر ما أحكيه عن البيازين هو أن أثناء عودتي من مالقة في اليوم التالي، وذهابي لمَدرِيد في اليوم الذي يليه، رأيت ماء المطر الشديد ينساب على سلالم البيازين بسهولة لا يتجمع في مكان منزوي عرفت بعد ذلك أن البيازين بها آبار لتخزين مياه الأمطار؛ لوقت الحاجة، وصممت سلالمها لغرض كذلك.

جلست وحدي وسط الليل الطويل منتظر يوم غد حتى أرى مدينة الزغل.

مَالقَة فِي حِضْرَة البَّحر

قمتُ من نومي في السابعة والنصف صباحًا، ونزلت من أعلى البيازين نحو أسفله، وركبت الحافلة التي تأخذني لموقف الحافلات المركزي الذي سأزوره اليوم وغدًا.

وصلت قبل موعد الخروج بربع ساعة تقريبًا.

مكثت قليلًا بين أروقة الموقف حتى جاءت الحافلة ذات الدورين؛ فركبت في كرسيَّ الذي اجتهدت بأن يكون بجانب النافذة لكن نظام الحافلات مختلف عن القطارات؛ فجاء كرسيَّ بجانب الممر بالدور الأعلى.

ما إن تحركت الحافلة حتى بحثت عن كرسي آخر شاغر، وجلست به أراقب الطريق الذي لم يكن يميزه شيء سوى أشجار الزيتون، وربما التين.

وصلت للمحطة المركزية لمالقة، وبمجرد خروجي قابلتني فتاة تعمل في هيئة السياحة، وحدثتني عن مزايا الأتوبيس السياحي حتى أخذت منها التذكرة أملًا في تضييع وقت تلك الرحلة الأخيرة بأرض الأندلس.

بالرجوع أسبوعًا للخلف إذ كان صديقي بمالقة أخبرني أن مالقة رهيبة، ومبهرة، وكثير من ألفاظ المدح، وأنَّه نادم على مكوثه بها يومًا ونصف فقط.

وبالرجوع لشهرين أو أكثر.

قررت الذهاب لمالقة في يوم ضمن برنامج غرناطة نظرًا لاحتوائها على القصبة، ولأنها تحمل ذكريات السقوط حين فرَّ الزغل منها؛ تاركًا لأهلها وعدَّ قشتالي دنيء بحرية الدين، وأمان خائن على النفس.

حين فرَّ الزغل من مالقة اتفق مع فرناندو على أمان شامل للناس، وللمباني.

فلما دخل فرناندو ذبح أهلها، وحول مساجدها.

وكانت حجة نكثه بوعده أنه لاقى من قصبتها الويل في المقاومة.

وبعد أن تركت مالقة لمصيرها المحتوم قتل من قتل، وأسر من أسر، وبقي من بقى.

لم يكن لدي في مالقة أي برنامج سياحي سوى زيارة القصبة التي يعلوها حصن جبل فارو، وهما مرتبطين بالمقاومة المذكورة آنفًا.

والباقي للبحر أو ما يسعه وقت الرحلة.

المهم نظرًا لما سبق حجزت الأتوبيس السياحي حتى ربما أتعرف بمرشده السياحي عن أثار المدينة.

أقصد ما بقي منها.

ركبت الحافلة، وكنت مع ثلاثة.

توالت الشوارع حتى صعد السائق طريق مرتفع بين بيوت مبنية على جبل، والقلعة على الجبل الآخر.

وعند ملتقى جبلي به بعض الأرائك، وساحة مدورة صغير تبدو مكانًا للالتقاء أخبرنا الرجل أنه يمكنني النزول هنا؛ لالتقاط بعض الصور التذكارية لكنه سينتظرني هناك، وأشار لمكان ما قريب.

نزلت، وصورت، وأنا أترك حقيبتي بها كثير مما أحتاج.

لا أدري لماذا وثقت به غير أنه انتظرني مع العلم إني لم أطل الوقوف.

بمجرد النزول من الجبل نزلت من الأتوبيس، وقررت حجز تذكرة للقلعة والقصبة.

أشار إلى أحد الناس بأن أصعد الجبل ثانيةٍ غير أني لم أنتظر حافلة لتقلني أعلاه فصعدتها على قدمي، وقد بدأت السماء بالمطر الخفيف الذي أطال مكوثه معي أكثر من يوم بين مالقة، وغرناطة حتى مَدرِيد.

صعدت للقلعة بعد عناء حيث مكان التذاكر، وسألتني الموظفة: هل تريد للقلعة أم للقصبة أم الاثنين معًا؟

فقلت : معًا، وكانت قيمة التذكرة للمعلمين معًا بـ(5.5 يورو).

حاولت الدفع ببطاقة البنك حتى أحتفظ بما تبقى من نقود ورقية معي لباقي الرحلة في مَدرِيد، وإيطاليا لكن لسبب ما تقني لم تفلح المحاولة؛ فاضطررت آسفًا للتنازل من رصيدي النقدي.

دخلت القلعة التي بدت لي مكانًا جيدًا إذا ما نظرنا لتكلفتها، ولكن أهم ما يميزها تلك القلعة متحف صغير جدًّا يحوي بعض إنجازات البحرية الإسبانية على هيئة مجسمات وجدران القلعة تشعرك بخطط الدفاع، والتمركز،

ونصب المجانيق، ولكن فوق كل هذا تستطيع أن ترى من خلال تلك القلعة كثيرًا من معالم مالقة بدءًا من الميناء، والبنايات البديعة التي تزين تلك المنطقة، وأمواج البحر، وتلال بالجانب.

بعد قضاء وقت ليس بالقليل خرجت من القلعة، وهممتُ بالنزول منها لكن قبل النزول أوضح لكم أن الجبل الذي بنيت عليه القلعة به منحدر للصعود والهبوط، وهو صعب التعامل معه في حالة المطر الشديد كما كان الحال، ويجب عليك النزول الهادئ منه حتى لا ينحدر بك الطريق فتجد نفسك تتزلج على الأسفلت.

وهناك منزل، ومصعد آخر على الجبل نفسه لكن مع تلك الحالة المزرية من المطر مجرد التفكير في استخدامه يعد دربًا من العَته.

ويجدر بي أن أقول أن تلك التلة -جبل فارو- بها الكثير من السناجب.

بعد النزول الحذر ذهبت لاستكمال زيارتي لقصبة مالقة التي ليس بها شيء يذكر سوى ذكريات السقوط.

ومما لاحظت منذ صباح اليوم حتى اللحظة أن تلك المدينة كانت كثيرة الزينة في شوارعها بسبب أعياد الميلاد، وهو أمر لم ألحظه إلا في ميدان إسبانيا بمَدرِيد فقط بجانب مالقة.

كان صديقي الذي صار بمالقة قبل بأسبوع تقريبًا قد دهش بها، ونصحني بزيارة أحد المطاعم على شاطئ مالقة، وتصوير نفسي عند الشاطئ بجانب كلمة "مالاجويتا" إذ يفعل كل الآتين لتلك المدينة الساحلية الجميلة.

وكان نصحه لذلك المطعم؛ لأنه يقدم طعام البحر فذاق هناك سردين مقلي الذي لا أحبه، ورجل أخطبوط، وعلى حد وصفه كانا رائعين غير أن اشتداد المطر فرض على معظم المطاعم خاصة التي بداخل أكشاك الإغلاق.

بعد التمشي تحت المطر مع لسعة برد حيث ذكريات قد حرمت منها كثيرًا لمكوثي بأعلى الخليج بحثت عن مطعم قريب؛ فوجدت على الشاطئ مطعم لطعام البحر غير أن به من الفخامة والرُقي الظاهر ما يقلق.

دخلت المطعم، ونظرت في أوجه الناس الباسمة فوجدت أن من شكلهم الظاهري ما يوحي بالأناقة واليسر.

شعرت أني في المكان الخطأ غير أني لن أرجع.

تقدم لي نادل فقلت له: هل تعرف الإنجليزية، فنادى رئيسه الذي كان بشوش الوجه ذو لحية بنية يشبه كثيرًا لشخص أعرفه كان يؤمنا في الصلاة.

سألني: ماذا تريد، فقلت له: أريد رجل أخطبوط؛ فأرشدني للوجبة المرجوة، والتي لم تكن غالية كما أتوقع بالرغم من أنها لم تكن تشبع قطة ممن يطوفون حولك وقت الطعام

أكلت الرجل، وما بجانبها من طعام، وبقي شيء أزرق كما رغيف يابس غير أنه رقيق وطعمه لذيذ.

تذوقت قضمة ثم خفت مما قد يحتوي؛ فقلت للرجل: ما هذا، قال: هذا أرز محروق تم تسويته مع حبر الأخطبوط قضمة أخرى وخشيت أن يكون بها نبيذ مطهي.

سحبت نفسي بعدما دفعت الحساب ببطاقة البنك، وتمشيت قليلًا على الشاطئ؛ ثم ذهبت لمحطة الحافلات منتظرًا حافلة السياح؛ لأكمل جولتي غير أن قد بقي على العصر نصف ساعة فبحثت عن أقرب مسجد وجدته على بعد ساعة مشي.

طلبت أوبر، وأنا انتظره ذهبت لمتجر بقالة بالمقابل؛ فابتعت منه مياه غازية، ومياه معبئة.

جاء السائق، وأخذني للمكان وبدأ بالتحدث:

أهلا سيد أحمد..

أهلا بك سيد سيرجيو أم أقول سيرخيو..

بابتسامة لطيفة قال: كما تحب..

سألني عن ما إذا كنت استمتعت بمالاجا، فقلت : نعم جيدة غير أني لم أصعد إلا جبل فارو، وذلك الشاطئ وبتوالي الحديث سألني: لماذا تذهب لهذا المكان ليس به شيء؟! ثم استدرك: أه ستذهب للمسجد.

بكل استغراب قلت له: كيف عرفت أن هناك مسجد؟ فقال لأن أمي مسلمة، وأبي أسباني مسيحي؛ فأعرف المسجد.

لا تدري تضحك أم تبكي غير أن الرجل بلطفه لا يستحق إلا الابتسام.

نزلت عن المسجد الذي اندهشت به حيث كان مسجد ذا حديقة، ومدخل يبدو كبيرًا جدًا كمساجد مصر، وبه مئذنة.

وأنا أدخل قابلني رجل؛ فقال: تريد الصلاة، قلت: نعم؛ فقال: تعالَ من هنا.

عرفت أن الدور الأرضي يفتح يوم الجمعة فقط، وباقي الصلوات يؤدونها في السرداب.

نزلت السرداب حيث محل الوضوء، وقاعة كبيرة نسبيًّا للصلاة.

صليتُ الظهر قبل إقامة العصر؛ ثم صليت العصر جماعة معهم.

خرجت بعد الصلاة، وقد بقي على موعد العودة لغرناطة ساعة وأشار تطبيق الخرائط ل 30 دقيقة مشيًا على القدم.

مع التلكؤ تصل ل 35 أو 40 دقيقة.

ذهبت ماشيًا نحو محطة الحافلات المركزية، ولم يلفت نظري في طول الطريق سوى نظافة الشوارع، وتناسق المباني، وشيئًا آخر وجدته بجانب المسجد.

وجدت محل جزارة يعلق لافتة على الزجاج باللغة العربية أن جميع اللحوم الموجودة حلال، ومذبوحة وفقًا للشريعة الإسلامية.

وصلت المحطة الرئيسية، وانتظرت الحافلة التي تعود بي لغرناطة؛ فجلست بالأعلى، وكانت شبه فارغة؛ فاستمتعت بالطريق الذي أخذ من الوقت ساعتين بفرق نصف ساعة زائدة على الذهاب.

وصلت غرناطة في تمام السادسة والنصف، وكان قد بقي على العشاء نصف ساعة.

وجدت متجر تركي صغير بالمحطة يبيع الفواكه المجففة، ولأني جائع فاشتريت منها كيس أستعين به على حاجتي.

بحثت عن أقرب مسجد الذي كان يبعد عن المحطة 40 دقيقة مشي، وفي الغالب هذا وقت الأذان.

لم اتلكأ، ومشيت بسرعة حتى وصلت لمكان المسجد، والذي كان ....

لم يكن ....

كان أو لم يكن....

التطبيق يشير إلى الوصول!

المكان عمارات ليس بها أي شيء، ونقطة الوصول على الخريطة بها سوبر ماركت.

تعلمت من السابق أن الخريطة لا تكذب، والواقع لا يكذب؛ لكن عينك لا تدرك الواقع.

بجانب السوبر ماركت باب يشبه أبواب الجراچات أو الورش الكبيرة.

دخلت به رأيت ساحة كبيرة، ولأن السماء مظلمة لم أدر ماهية المكان، وأنا لا أهتم إلا بالمسجد الذي قد مضى على الأذان 10 دقائق، ولا أريد أن تفوتني لأني قد أعود مُرهق.

نظرت عن يساري؛ فرأيت شابًا يمشي مسرعًا؛ فمشيت خلفه، ووجدت غرفة كبيرة، والإمام يصلي دخلت في الصلاة بنية المغرب حتى لو صلى الإمام 4 ركعات.

ولأن على نياتكم ترزقون كان الإمام في الركعة الثانية، وأتممت صلاتي مع تسليمته؛ ثم نهضت للعشاء ركعتين.

ساقني الفضول لاستكشاف السوبر ماركت؛ غير أن دقيقة به مع وجود أفخاذ الخنازير بمقدمته جعلتني أخرج وسط نظرات الكاشير.

بحثت عن طريق الوصول للبيازين مشيًا؛ فكانت طويلة نوعًا ما.

ثم بحثت عن الأتوبيس الذي يصل لها، ومكثت في المحطة منتظرًا التي كانت على صغر مظلتها بها الكثير ممن التجأوا بها حماية من المطر.

بعد قليل جاء الأتوبيس، ونزلت عن أسفل البيازين، وصعدت لكن بالرغم من الشتاء فنفسي تطوق للتجول فيه ولو لمرة أخيرة حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا أو يلج الجمل في سم الخياط لا أدري ما المستقبل.

كنت جائع جدًّا بعد يوم مشيت فيه ما يزيد على 16 كيلو متر وصعدت وهبطت 55 طابقًا حسب تطبيق الصحة الخاص بال (آي فون).

وأنا أمشي في البيازين، وجدت فتاة جميلة صغيرة في السن تقف في شدة المطر؛ لتدعو الناس للدخول في المطعم.

نادتني الفتاة، وقالت لي: انظر لدينا عرض جيد ثلاث شطائر فلافل بالبطاطا والبيبسي ب 7 يورو، هو عرض جيد، وأنا جائع، ولكن ما دفعني لقبول عرضها هو وقوفها في المطر في وظيفة لا أحد على وجه الأرض يحبها.

كان يبدو من الإعلان، والشكل الخارجي للمطعم.

دخلت المطعم، وطلبت وجبة أخرى خاصة أن صاحب المطعم كان سوريًّا؛ فطلبت مقلوبة فلسطينية، وبعد الانتهاء خرجت، وتوجهت للفتاة التي بادرتني: أعجبك المطعم، قلت : نعم، لكني دخلت ذلك المكان تقديرًا لكِ؛ ففرحت بذلك، وشكرتني، وهنا أشار فتى أسباني: لا تسمع كلامها.

فابتسمت لهما، ورجعت صاعدًا، وأنا أحمد الله على العافية، والوظيفة، والمال وكل شيء.

صعدت سريعًا لا أنتبه لشيء من شدة المطر.

ما كنت أحب أن يكون أخر عهدي بالبيازين هكذا.

كنت أريد أن أصعد لسطح البيت أخاطب الحمراء، وتنظرني.

رجعت البيت، وجلست على السرير، وأنا أسمع صوت المطر يطرق الجدران، والزجاج، وكل شيء بالرغم من المطر الذي لم ينتهِ إلا إني مكثت حتى غلبني النوم، وقد أنهيت شيئًا كان حلمًا راودني فوق خمسة عشر ربيعًا.

آخِر أيّام إسبَانيَا

صحوت مبكرًا مستعدًا لفراق غرناطة رمانة الأندلس.

استعددت جيدًا، وحملت أمتعتي، وهبطت من أعلى البيازين نحو أسفله أسابق المطر الذي لم يتوقف منذ أمس، والذي تتابع على مدار اليومين يغذي مجاري الماء في الحمراء، والبيازين بالماء لتقذفها المنحدرات حيث المخازن المعدة لتخزينها.

أكملت النزول حتى خرجت من البيازين مودعًا أجمل مكان ربما رأيته يصلح للسكن.

وقفتُ منتظر الحافلة في محطتها راميًا ورائي أجمل أيام عمري، وذكرى الأجداد.

ورائي البيازين شاهد على حوادث التاريخ، ويقابله الحمراء عاليًا أعلى من كل شيء ووراءه البشرات يحوي ذكريات النضال.

ثم أتت الحافلة تاركة كل شيء، ومُصوبة وجهها صوب محطة الحافلات المركزية حيث الحافلة التي ستقلني لمَدرِيد.

بحسب جدول الخروج، والوصول فإني سوف أصل لمَدرِيد حوالي الثالثة عصرًا مما يعني أن صلاة الجمعة الثانية قد ضاعت هي الأخرى، ولم يكن هناك تأويلات، ولا اجتهادات، ولا حتى اختلاق أعذار واهية.

كان العذر حقيقي، وهو أني في الطريق.

انتظرت حتى موعد الخروج من غرناطة، وما إن دخلنا في الطريق السريع حتى رددت دعاء السفر، وهيئت نفسي لرحلة غير مُريحة حيث كرسي الجلوس على الممر، وتجلس بجانبي عجوز لم تَبدِ أي ود في هذه الرحلة الطويلة البائسة.

طريق طويل، وملل يحيط بي من كل مكان.

غفوت؛ ثم صحوت أراقب الطريق، وساعة الوصول منتظرًا الخروج من تلك الحافلة بطابقها العلوي، وكرسيها غير المريح، والسيدة التي أحاذر أن أضايقها بشيء ما من دون قصد.

بعد عدة غفوات، وصلت مدخل مدريد، والمطر ما زال ينزل يتتابع النزول في كل الأماكن التي أدركها ذهني نزول المطر بين الشدَّة واللين.

عند مدخل مدريد احتاج سائق الحافلة لنصف ساعة كاملة للوصول للمحطة الرئيسية مما أخر موعد الوصول عن السابق.

نزلت من الحافلة أحمل حقيبة، وأجر أخرى واصلًا لمحطة الحافلة الداخلية ساعيًا للوصول لسكني الثاني داخل مَدرِيد، والذي في مكان آخر غير سكني الأول.

بحثت عن مكان السكن عبر تطبيق جوجل ماب؛ فأرشدني أنه في شارع (خايمي الأول) أو الفاتح ملك أراجون الذي احتل فالنسيا تابعت الخريطة حتى نزلت في المحطة المرجوة، وتتبعت أثار التطبيق حتى وصلت للعمارة التي بها سكني.

كانت تلك العمارة أو البناية جزء من عدة بنايات على نفس النسق، ومتصلة ببعضها تشبه إلى حد كبير نسق البنايات في منطقة مدينة نصر أو تعاونيات سموحة بالإسكندرية غير أنه مجمع صغير من أربع شوارع فقط.

وقفت هنيهة محاولًا التقاط أنفاسي مستظلًا بأي شيء من المطر الشديد.

اتصلت بصاحبة المكان؛ فأخبرتني أن أمها تنتظرني في الدور العاشر، والغرفة جاهزة للاستقبال، وما عليَّ سوى الصعود.

صعدت حيث الشقة؛ فوجدت سيدة عجوز تستقبلني، ومعها سيدة أخرى عرفت أنها أختها.

كانت السيدة برغم كبرها إلا أنها ملمة بتفاصيل التعامل لكن بالإسبانية بأخذ عموم الكلام المشترك بين كل اللغات أشارت للحمام، وأعطتني المفاتيح، والماسح الضوئي لكلمة سر "الواي فاي".

صليت الظهر والعصر، ومكثت ساعة ممدًا على سريري منتظرًا وقت المغرب؛ لأصلي المغرب والعشاء؛ ثم أنظر ماذا أفعل.

عند الأذان صليت المغرب والعشاء حملت حقيبة الظهر، ونزلت هائمًا لا أدري ماذا أفعل، وأين أقضي الغد.

لم أحجز حتى اللحظة تذكرة المباراة.

لا أدري أيسعني جسدي في رحلة لطليطلة أو سرقسطة أم إن لبدنك عليكَ حقًّا.

نزلت الشارع، وتمشيت قليلًا حتى وصلت إلى ميدان وبه مطعم حلال جلست فيه، وطلبت شطيرة شاورما، ومعها بطاطس، ومياه غازية من كوكاكولا التي كانت رائعة.

بعد الأكل بحثت عن الذهاب إلى ميدان إسبانيا إذ لا يوجد غيره ولأن به محلات للهواتف التي أحتاج إليها لشراء إكسسوار لهاتفي ضروري.

نزلت عند الميدان، وأخذت طريقي العكسي من الميدان حتى بنك إسبانيا كما حدث منذ تسعة أيام غير أني كنت متمهلًا في مشيي مستمعًا لموسيقى الشارع من شبابها باحثًا في أوجه المحلات عما تحتوي عليه.

ذهبت لمحل هواتف، واشتريت دبوسًا لإخراج الشرائح.

وبعدها وجدت متجرًا يتبع نادي ريال مدريد لكن كان يستعد للإغلاق؛ فلم يمهلني حتى البحث في ما إذا كان لديه ميداليات تحوي الشعار أحملها ذكرى لبعض محبي النادي غير أن حارس المتجر أجابني بوجه عابس حين سألته إذا ما كان لديه تذاكر لمباراة الغد بلَا.

ذهبت -وقد تمكن مني الإرهاق- إلى البيت محاولًا الاستراحة ليوم غد الذي لم أؤكد منه شيء حتى اللحظة.

ما إن وصلت للمنزل حتى أخرجت شريحة الهاتف الإسبانية واستبدلتها بقرينتها الكويتية، ودخلت لأحجز تذكرة مباراة الغد، وتوقعي أنها غير موجودة وبيعت كلها غير أني وجدت (3 تذاكر) متبقية حجزت أفضلهم، وعند الدفع أرسل الموقع الإلكتروني رسالة تأكيد لرقم هاتفي المسجل عليه

حسابي البنكي لهذا كان ذلك الدبوس مهمًّا ومحوريًّا في تصريف أفعال أخر يوم بمَدرِيد.

بعد حجز التذكرة حاولت إيجاد وقت، ولو يسير لطليطلة أو سرقسطة غير أني لم أكن متحمسًا لسبب لم أعلمه إلا في اليوم التالي.

خلدت للنوم، وكان نومًا خالدًا من الواحدة ليلًا حتى الثالثة عصرًا.

لا أدري كيف مرَّ هذا الوقت دون يقظة، ولو لحظات يسيرة.

صحوت مُسرعًا نحو الحمام توضأت، وصليت ركعتين ثلاث مرات أسفًا على ما حدث.

وهنا علمت لماذا لم أتحمس للذهاب إلى مكان ما.

بعد وقت قليل بدلت ملابسي، واستعددت لقضاء الساعات المتبقية للمباراة ماشيًا دون هدف مكتفيًا بشارع في مَدرِيد، ومسجد ثم أرى أين تذهب قدماي.

نزلت للشارع، وكان الجوع قد استبدَّ بي بعد ما يقرب من يوم دون طعام؛ فنزلت لأقرب مطعم حلال لذي كان بجانب مطعم أمس، وعلى شاكلته يكتب مطعم تركي، ويحتوي على الأكل السريع.

طلبت منه وجبة دجاج مقلي المعروفة ببروستد مع ما تستضيفه في الطبق من بطاطس، وعلبة مياه غازية.

أكلت وخرجت، وأنا أبحث عن مسجد؛ فأشار إلى أن المسجد -المسجد القديم نفسه- على بعد 20 دقيقة مشيًا على الأقدام غير أن بقي للمغرب أكثر من ساعة.

بحثت عن كيفية الوصول من مكاني لاستاد (سانتياجو بيرنابيو) ثم بحثت من جانب المسجد للاستاد؛ فوجدت أن المسجد بجانبه خط مترو مباشر لمحطة قرب الاستاد.

ذهبت ماشيًا إلى المسجد متأملًا مَدرِيد التي لم أرَ فيها شيئًا بتقييم لثلاثة أيام هل تستحق ذلك أم لا غير أن ليس هكذا التجارب، التجربة تعيشها، لم أشغل بالي كثيرًا بتلك التجربة، وشوقت نفسي لرؤية شخوص مشهورين أحدهم شكل ثقافتي، ومتعتي الكروية وهو "زين الدين زيدان".

قبل المسجد كان هناك نهر –هكذا سموه– غير أنه مكان لمجري مائي ارتفاعه 10 سنتميتر عن سطحه، وبه يقف كثير من النوارس غير إني مكثت قليلًا أمامه، وهاتفت أصدقائي، وأهلي منتشيًا برحلتي مذكرًا إياهم بانتظاري اليوم في المدرجات الخلفية على التلفاز.

أكملت مسيري للمسجد حتى وصلت إليه، وبقي الكثير للصلاة؛ فجلست في خشوع شبه تام أسمع الفتى السنغالي يقرأ القرآن حتى هاتفني أحد الأصدقاء يسألني عما إذا كنت سأحضر مباراة اليوم أم لا، وسمع صوت الفتى يقرأ ويُرتل؛ فسألني عن المكان فقلت : هذا مسجد بمَدرِيد يؤمه سنغاليون، فقال: صوت الفتى جميل.

جاءت صلاة المغرب صلينا؛ ثم صليت العشاء، وذهبت في اتجاه محطة المترو؛ لأبدأ مشواري الأخير في إسبانيا.

ركبت المترو وأنا أعد المحطات حتى النزول، فاجأني شاب جزائري بتحية الناس أهلًا فقلت له: أهلًا وسهلًا

رد: شكلك مصري؟

قلت له: وأنت منين؟

قال: أحنا اللي باش نربحوكم

لم أفهم ماذا يقصد فقلت له: من أي البلاد؟

قال: الجزائر.

قلت في نفسي آخر مباراة فاز المنتخب المصري بأربعة.

ثم قلت له: تشرفت بك، ودار بيننا حديث عن رحلتي، وسألني: ماذا فعلت في مَدرِيد؟

أخبرته بإيجاز كل ما فات، وما سيأتي.

فقال: منين اشتريت التذكرة؟

قلت : موقع النادي الرسمي.

قال: كنت تشتريها من عند الاستاد أرخص.

فقلت : هي تجربة لن تتكرر؛ فكان عليَّ بالأحوط لا الأرخص.

ثم حدثني عن نفسه أنه يدرس بالصيف في مَدرِيد مثل تدريب عملي غير أني لم أحاول الإطالة في الحديث حتى لا أسأل ما ليس لي بحق، ولا أحرجه.

نزل الشاب في محطته، ونزلت بالمحطة التي تليها، وخرجت منها ذاهبًا نحو (السنتياجو)

كان في تتابع المشي باتجاه الإستاد، علامات توحي بأني على الطريق الصحيح لم أكن بحاجة لمتابعة تطبيق جوجل ماب؛ فكان يكفي أن ترى مجموعة تمشي على طريقك نفسه لا سيما لو كانت شاراتها بيضاء.

ومع الاقتراب يأتي الضجيج؛ فتطمئن.

ثم .... ثم ....

مع الوصول لقبل الإستاد حيث الباعة الجائلين يفرشون في مشهد أقرب بمباراة الزمالك، وحرس الحدود باستاد المكس، وتجد معهم الشارات، والرمز الأثير مطبوعًا على كل شيء لأعظم أندية الكون كما تجد فيها لذ وطاب من مثلجات وتسالي، ولمن يطيب من جعة غير منزوعة الكحول.

وهنا مشجعي ريال مدريد يصيحون، وهناك مشجعي ريال سوسيداد يتجرعون الجعة مع صيحات أجشة.

حاولت الوصول للبوابة، فلم أستطع إلا بمساعدة فتاة من منظمي الحدث التابعين للنادي الملكي.

بعد مكوث طويل أمام البوابة فتحت أخيرًا، وانطلق الكل في نظام لم أعهده من قبل على الدخول.

دخلت بعدما سمحت البوابة الإلكترونية بالدخول عن طريق صوت صفير الدخول المتبع.

لم يكن هناك أي احتمال في الجلوس في غير مكانك، وللأمانة لم أسع لذلك.

ذهبت حيث مكاني، وانتظرت توافد المشجعين حتى امتلأ الملعب عن آخره أو بمعنى أدق كان هناك قليل لم يمتلأ.

بدأت الفرقة الملكية في النزول، وهي تسمع صيحات الجمهور للتحية، وأصواتهم تشدو بفلان، وعيني تراقب زيدان اللاعب الأنيق، والمدرب المحبوب.

نزلت لكافتيريا الاستاد محاولة أن أجد شيئًا يسليني في تلك التجربة؛ فلم أجد أفضل من الفشار؛ فليس هناك احتمال وجود به شيئًا مما أخشى، وزاد اطمئناني إني وجدت بالعربية مكتوبًا عليه أنه خالي من الجلوتين، ولأني لا أعرف الجلوتين؛ فظننته جيلاتين حيواني ففرحت باحترام الإسبان لمشاعر العرب حتى زال عجبي وازداد ضحكي حين عرفت أن الجلوتين هو مادة موجودة بالقمح، وليست صحية للتناول بكثرة، والأمر ليس كما أظن.

قبل بداية المباراة بقليل التقطت صورًا تذكارية للاستاد مع صفحات بعض أصحابي من مشجعي النادي.

حتى بدأ المشجعون في الوقوف؛ استعدادًا لأداء تحية النادي "هلا مدريد".

وقفت معهم ثم استمعت لتراتيل الحب والشغف، وسجلت تلك الأغنية.

بدأت المباراة مع أول دقيقة أحرز الضيوف هدفًا.

وبعد نصف ساعة عدل النادي الملكي النتيجة عن طريق مهاجمهم "بنزيما"؛ ثم أضاف "فالفيردي" ثانيًا ببداية الشوط الثاني ثم الثالث بالفتى "مودريتش"

وسط أجواء حماسية، ومباراة تشعر بها بالنشوة تمر الدقائق، ومع اقتراب رحلتي من نهايتها؛ فوجئت برسالة من المؤجرة تسألني عن موعد الرحيل؛ فأخبرتها غدًا صباحًا.

بعد انتهاء المباراة قفلت عائدًا من الطريق نفسه؛ لأجد الشوارع قد امتلأت بعبوات الجعة الفارغة إلا من القليل، ورائحة الشعير الممتزج بالكحول تعكر نسيم ليل الخريف مشيت مُسرعًا حتى لا أثمل من الرائحة كما مازحني أحد أصدقائي فقد كنا نتبادل الرسائل بعد المباراة.

ذهبت إلى محطة المترو؛ ثم ركبت القطار، ونزلت حيث أقرب محطة لمكاني ومشيت ببطء حتى المنزل صعدت، والتحفت سريري، ونمت حتى الصباح.

الطَرِيق إِلى رُومَا

صحيح أن كل الطرق تؤدي إلى روما؛ لكنها يجب أن تمر أولًا عبر الأندلس.

تلك المقولة التي سرقتها من أحد الكُتَّاب، وعدلتها حتى تلائم حالتي الغريبة.

حان موعد الرحيل لروما.

حان موعد وداع قشتالة.

ذكريات الأندلس تمر.

مجهول روما يأتي.

وما دامت كل الطرق تؤدي إلى روما، فلا بد من الذهاب إليها.

انتهت قصة الأندلس بالنسبة لي على الأقل حتى ذلك الوقت.

ذهبت ماشيًا تجاه محطة المترو؛ لأستقل قطارًا ثم أبدله بقطار آخر ومن ثم الذهاب إلى مطار باراخاس.

مشت الخطة كما هي، وعند الصعود للمطار لم تسمح لي البوابة بالمرور فبطاقة المواصلات تحتاج ل 3 يورو كي تمر.

شحنتها بما يكفي، ومررت.

صعدت للمطار، وذهبت حيث لوحة الإرشاد عن الرحلات الذاهبة والآتية.

عرفت بوابة رحلتي فذهبت إليها مُسرعًا؛ على الرغم من وجود ما يكفي من الوقت ويزيد؛ آثرت السلامة.

مررت من الممرات حتى وصلت إلى مكان خروجي، ووجدت أن تلك البوابات المتقاربة من بعضها معظمها لإيطاليا.

وقفت في الصف الطويل المكون من مرتادي ثلاث رحلات كلهم لإيطاليا، ورأيت ورائي فتاة لا تكبر عن ال 16 ربيعًا بكل الأحوال.

تذكرت نفسي وأول سفري خارج الديار الإسكندرية عندما كنت في سنها لكن كانت الرحلة إلى كفر الدوار.

بعد قليل تفرق الصف كل في بوابته خاصة من يذهبون لفينيسيا فالطائرة على وشك الذهاب، وذلك لخطأ لوجيستي ربما.

على أية حال.

ذهبت لطريقي، وبقي ساعتان، وأكثر وليس لدي شيء.

قرأت قليلًا ثم تجولت بين جدران قاعة الانتظار.

حتى جاء أذان الظهر.

ذهبت إلى مكتب الاستعلامات، وسألتهم عن مكان للصلاة.

بعد عدة محاولات للفهم أخبروني أن مكان الصلاة خارج منطقة المرور للطائرة.

استصعبت الخروج، وإعادة الكرة من جديد، فقلت لهم: سأصلي عند تلك الحائط فقال: أحدهم لا مشكلة؛ لكن لا نعلم القبلة.

قلت لهم: أتدبرها أنا.

صليت بجانب الحائط؛ ثم عدت حيث مكان الانتظار.

وقبل الإقلاع بقليل جاءت فتاة تستأذنني في الجلوس بجانبي.

ثم تعارفنا، وسألتني عن كوني غريبًا فأخبرتها أني ....

كما قلت ، وسأقول في كل مكان

سألتني عن وجهتي؛ فقلت : روما؛ فقالت: مثلي؛ لعلّنا نلتقي هناك.

واتفقنا على الوصول لمنتصف روما معًا حيث مكان الإقامة، وأن تعينني في رحلتي التي ليس لدي عنها معلومات كثيرة.

جاءت لحظة دخول الطائرة، وجلسنا حيث مكاننا، وذهبت خارج الأندلس.

إِيطَاليا

جنة الكرة..

تعني إيطاليا الكثير للكثير؛ فهي الكثير فعلًا..

إيطاليا..

سواحل بكل مكان..

إيطاليا..

جزيرتان تضربان في وسط المتوسط..

إيطاليا..

البندقية، وما أدراك ما البندقية..

إيطاليا..

روما الساحرة بشقيها الروماني والمسيحي..

روما بإقليم "لاتسيو" ودولة الفاتيكان..

إيطاليا..

فلورنسا، ويكفي الاسم..

إيطاليا..

لكل مدينة حكاية..

إيطاليا..

جنة كرة القدم، وهنا المربط..

على الرغم مما تحوي إيطاليا من مواقع تراثية فإنها لم تكن تعني لي سوى أنها الجنة.

جنة العشاق.

والعشق كرة القدم.

قصتي مع كرة القدم بدأت في نهاية النصف الأول من التسعينات، وترعرعت عالميًّا مع كأس العالم 98.

فالمنتخب الإيطالي الذي لا أعلم سبب تشجيعي له.

غير أني شجعته بما يحويه من لاعبين.

تولدو، نيستا، ديل بييرو، كانافارو، روبيرتو باجيو، بيلي كوستاكورتا، ألبيرتيني وباولو مالديني.

وهذا الأخير معه تغير فكري عن كرة القدم معه إلى اللحظة.

كثير من أبناء جيلي تحول بعد كأس العالم 98 إلى الفرق العالمية، وأغلبهم ذهب إلى ريال مدريد؛ لأنه النادي الأوفر حظًّا في ذات الأذنين المفضلة لديه.

فقد فاز بدوري الأبطال 2000 و 2002، وخاصة بطولة 2002 التي تحمل في أبطالها روبرتو كارلوس صاحب التسديدات الصاروخية، وزيدان، وفيجو، وهما المفضلان لكثير منا، وأنا منهم، وكذلك راؤول الشاب اليافع الوسيم.

على الرغم من هذا فقد صوبت نظري باتجاه الجنة.

وأي شيء يعلو على الجنة.

والجنة هنا غير تلك التي نبغ من رضا الرحمن.

هنا جنة كرة القدم.

لا أعلم من أطلق هذا المصطلح على تلك البقعة في خريطة الكرة.

ولا أدري أصحيح أم لا رياضيًّا.

غير أن تلك الجنة كانت تمتاز بالخشونة، والصراع وهذه ليست أوصافًا للجنة.

دعنا من تلك الكلمات.

انجذبت لنادي ما، ولاعب ما شكلا تكويني الكروي أوربيًا.

لا أدري لماذا أحببت النادي الإيطالي ميلان، ولاعبه العظيم "مالديني".

لكن هكذا قدر.

منذ عام 98 وأنا أشجع نادي "إيه سي ميلان" في مبارياته الأوروبية التي لم يكن متاحًا غيرها، وكنت أتابع نتائجه بشكل ما عن طريق ما تيسر من أخبار.

بالنظر إلى "باولو مالديني" فالكثير يحمل له الوفاء لناديه مدة 24 عامًا لكن هذا جزء مما يتميز به اللاعب؛ فهو فوق هذا لاعب كان جيدًا في مكانه إلى اعتزاله حتى أصبح أفضل مدافع أيسر بتاريخ العالم كما جاء تصنيف مجلة (فرانس فوتبول)، وقد اختاره بيليه من ضمن أفضل 125 لاعب في الألفية المنتهية.

بالعودة للوفاء؛ فإننا نرى أن الكرة الإيطالية تطعم كثيرًا من أبنائها الوفاء في وجباتهم.

ففي حادثة 2006 المشهورة "بكالتشيو بولي"، التي أدت لهبوط اليوفنتوس – سيدة الشمال العجوز- نجد أن كثيرًا من لاعبيه هبطوا معه خاصة (ديل بييرو وبوفون)، وهما في أوج تألقهم في كأس العالم ومعهم بافل (نيدفيد) و(تريزيجيه).

نادي (إيه سي ميلان) جمد الرقمين الخاصين ب "فرانكو باريزي" و"باولو مالديني" لأنهما من أكثر اللاعبين لعبا للنادي، ولم يخلعا قميص ميلان طوال لعبهما.

وغير ذلك الكثير أخرها "توتي" ملك روما.

الكلام عن كرة القدم في إيطاليا بالكاتاناتشا، والجرينتا قد لا يتوقف، ومثلي لا يستطيع إعطائه حقه، وليس هنا معرض الكلام فيه، وإن كان جزء لا يتجزأ منه.

رُومَا مَشيًا عَلى الأقدَام

بدأت الطائرة بالهبوط بمطار ليوناردو دافينشي، وقد تبين لنا منظر بديع لقرب المطار من البحر، وكان الوقت قبيل الغروب بقليل.

أرشدتني زميلتي في الرحلة أن عليَّ القدوم من ذلك الاتَّجاه حيث حاملي إقامة الاتحاد الأوروبي، وليس كما كنت ذاهبًا إلى القادمين الجدد.

فأنا قادم من منطقة الشنغن، وقد ختموا لي بالدخول في مطار باراخاس.

ذهبنا معا لاستلام الحقائب؛ ثم بحثت عن وسيلة للخروج من المطار عبر جوجل ماب لكنها قالت: هناك حافلة تأخذني لوسط المدينة بجانب محطة القطارات أسهل من التنقل بين الحافلات، وإن كانت أغلى فالتذكرة ب (6 يورو).

ركبنا الحافلة، ولأنها كانت قد زارت إيطاليا من قبل فأريتها مكان الفندق الذي حجزته.

ومرَّ الطريق دون تركيز ربما لحلول الظلام؛ على الرغم من أن الساعة قبل السادسة بكثير، ولكن لأن إيطاليا تحمل توقيت إسبانيا نفسه +1؛ فإن الغروب يأتي مبكرًا لأنها في الشرق نوعًا ما.

نزلت من الحافلة، وقالت لي: هذا شارع مرسالا حيث الفندق.

ودعتها وبحثت عن مكان الفندق بالضبط؛ فوجدته على بعد دقيقة من المحطة؛ بل أقل فلم يكن عليَّ سوى أن أعبر الشارع؛ فأجد الفندق أمامي.

ذهبت إلى لفندق الذي يشبه إلى حد كبير الفنادق الموجودة بمنطقة محطة مصر في الإسكندرية، ومثلها في وسط البلد بالقاهرة التي يطلق عليها "لوكندا".

لكن لا بأس أنا هنا للمبيت فقط كما أنه لم يكن سيئًا أصلًا، وإن كان ليس باهرًا.

صعدت حتى مكان الاستقبال؛ فوجدت رجلًا فلبيني الجنسية، أريته حجزي فطلب مني (6 يورو).

ضحكت

قلت له: الحجز مدفوع كاملًا ليس به أي مبالغ مؤجلة.

قال: لا هذه ضريبة السياحة.

ضحكت أكثر.

دفعت له المبلغ المطلوب.

وصعدت حيث غرفتي؛ فوجدتها واسعة جدًّا بها سريرين قد ضما إلى بعضهما فأصبحا سريرًا ملكيًّا (كبيرًا)، ومكتب، وكرسي ربما للطعام لكن أغرب ما وجدت بالحجرة هو حوض صغير يستعمل لغسل اليد.

ولم تكن الغرفة ذات حمام مستقل؛ بل كان مشتركًا.

استعملت ذلك الحوض للوضوء، وصليت المغرب والعشاء.

نزلت من الفندق مستكشفًا المكان حولي، وساعيًا نحو مكان للطعام.

بالشارع الجانبي مشيت قليلًا حتى وجدت مطعمًا فخم يقدم الباستا والبيتزا الإيطالية.

تجاوزته قليلًا عازمًا العودة له بعد قليل.

على بعد 20 متر وجدت مطعم شعبي على اليسار؛ فدخلت أرى ما به؛ فوجدته يقدم قطعًا من البيتزا الصغيرة، ولا يبيع بالواحدة كما المعتاد.

وبه كراسي خشبية، وطاولات صغيرة.

وكان حولي الناس يشربون الجعة (البيرة) مع البيتزا.

ذهبت إلى الفتاة التي تقدم الطعام؛ فقلت: أي الأنواع من دون لحم خنزير، ولم أشرع في الشرح المعتاد حتى فاجأتني، وقالت: هذه بالمشروم، وهذه بالخضروات، أنت نباتي لا تقلق.

أول مرة آخذ الطعام من دون شرح في العقيدة وفقه المعاملات.

أخذت 4 قطع لا يسمنون، ولا يذهبون الجوع، ولم يكونوا باهظي الثمن.

كان المحل بسيطا لا يقدم خدمات حتى المحارم الورقية (المناديل).

احتجت لمنديل أمسح به يدي وفمي من بقايا الطعام؛ فأعطاني واحدًا أحد السكارى الذين يتعاطون الجعة بالطاولة أمامي.

شكرته، وذهبت.

ولأن ما أكلته لم يشبعني، وكان للتجربة أصلًا لم تكن بغرض العشاء.

ذهبت إلى المطعم السابق الذي يقدم الباستا.

دخلت المطعم؛ فوجدت ترحابًا شديد من المسؤولة، والنادل، والكاشير كأني شخص مهم لكن هم يقدرون الزبائن.

دخلت المطعم، وطلبت منه وجبة من المكرونة الاسباغيتي الحمراء مع الاستاكوزا.

بالرغم من أني أكلتها عدة مرات؛ فقلت لنفسي: جربها هنا، وأنت لا تحسب حسابًا للمصاريف فربما عندما ترجع لن تجربها؛ فيصرفك عنها غلاء ثمنها.

بعد وقت ليس بالطويل جاءني طبقي، والتهمته سريعًا؛ ثم جاءني النادل، وسأل: تريد أي حلويات؟

وكانت قد اشتاقت نفسي لتناول الحلويات، ولكن يجب السؤال عما إذا ما كانت تحتوي على مكسبات طعم حيوانية؟ فكانت الإجابة لا.

تناولت قطعة من الكيك بالشوكولاتة أردفتها بكوب لاتيه إيطالي.

وعند الدفع تحدث مع الكاشير، وسألني عن أي لغة تفضل للكلام؛ فقلت: إنجليزية أو عربية

فقال لي: من أين أنت؟

قلت : مصر.

قال: مصري ابقى تعالى عندنا كتير تاكل بيتزا كتير، وباستا كتير.

ابتسمت له، وشكرته، وذهبت، وأنا لا أعلم ما فعلت به الأيام التي قدمت إلى بلده بوباء كلفها كثيرًا من أبناءها

رجعت إلى غرفتي وذهبت إلى موظف الاستقبال، وطلبت منه وسادة أخرى فطلب مني 2 يورو.

ذهبت من دون شكره خشية أن يطلب مني ثمنًا للشكر.

صعدت غرفتي، واستعددت ليوم غد الحافل.

في الصباح حملت أغراضي، وتتبعت جوجل ماب حتى أصل إلى مبنى الكلوسيوم الذي لم يكن يبعد كثيرًا ربما أقل من 2 كيلومتر عن السكن.

لكن قبل الذهاب عرجت على شارع في الجهة الأخرى من المحطة به مطاعم معظمها حلال يقودها هنود أو بنغال.

ذهبت لأحدها، ونظرت في القائمة؛ لأجد أن معظم ما بها وجبات غداء غير أني لم أعبأ بهذا كثيرًا؛ فطلبت وجبة بها قطعة لحم كبيرة، وبطاطس، وعلبة مياه غازية التي لم تكن بجودة نظيرتها في إسبانيا.

التهمت الوجبة، ومضيت في طريقي.

وصلت للكلوسيوم؛ فوجدت في استقبالي مناديب شركات السياحة يعرضون علي خدماتهم.

ولأن طابور التذاكر كان طويلًا حجزت تذكرة عن طريق أحد المناديب تحوي زيارة الكلوسيوم، والبانتيو، والفوروم أو الساحة الرومانية.

لأكن أمينًا لم أهوَ يومًا الآثار الرومانية، ولا الكنائس، هذا لأني لا أحب الآثار؛ لكن أحب التاريخ، وإن سألني أحد الناس لماذا ذهبت إذن لإيطاليا؛ فليس هناك إجابة معقولة أو محددة.

ذهابي إلى إيطاليا كان سببه أني أردت إدخال الجديد على رحلتي بتوجيه من أحد الأصدقاء؛ فكانت روما، ومن ثم ميلان.

كانت إيطاليا كطبق الفاكهة بعد الطبق الرئيسي.

لا يهم ما تحتوي من أنواع بقدر ما تؤتي من حلاوة الطعم.

أما عن حبي للتاريخ؛ فهو هواية منذ الصغر، أما عدم حبي للأثار؛ فبسبب أني غير متذوق لفنون العمارة، وجمالياتها، وبدائع صنعها.

لم تكن العمارة تستهويني بتفاصيلها مع الإقرار بجمالها العام، وهذا قد بدا جليًا حين يسألني الناس كم مكثت في الأثر الفلاني؛ فأقول وقتًا يتعجب منه السامع.

على كل حال ما يجذبني نحو الآثار تاريخها.

وما يجذبني نحو التاريخ ارتباطه بي.

فهذا كان في الأندلس، ولم يكن في إيطاليا.

على أية حال هذا لا يقلل من الآثار، وجمالها، ودقة عمرانها.

وحتى استمتاعي بجمال بنيانها دون تركيز في تفاصيلها المبدعة.

ذهبت إلى المندوب، وأخبرني أن الدفع يمكن أن يكون عن طريق الحساب مما وفر عليَّ كثيراً مما تبقى من قليل المال النقدي لدي.

جاءت المرشدة السياحية، وبدأت في التَّعرف علينا، وكنت أنا العربي الوحيد.

سحبتنا المرشدة ورائها، وكنَّا نحن نمشي كقطيع الغنم التي تخاف البعد عن راعيها على الأقل حتى دخول الكلوسيوم الذي ذكرني بالمسرح اليوناني بكوم الدكة في الإسكندرية، وللحقيقة روما تشبه كوم الدكة كثيراً.

ولكن للأمانة؛ فإن الكلوسيوم أعمق بكثير من نظيره المصري.

حجز الموظف التذاكر لنا، ودخلنا، وبدأت المرشدة بالشرح، وتبعثر الناس من حولها كأنهم كانوا كلهم مثلي لا يريدون من ذلك الحجز إلا توفير وقت الطابور الذي لم نوفر كثيراً منه؛ لكن بدأت الكلام عن تاريخ روما، وكيف بني ذلك المعلم، ومراحل تطوره في كلام كثير لم نركز في معظمه فقد انصب التركيز على البنيان، وبعد مدة قالت لنا انتهى الآن شرح المعلم هذا يمكنكم خلال ساعة التجول ثم الذهاب عن المخرج حتى نكمل الجزء الثاني من البرنامج مع زميل آخر لها.

بين التجول في أروقة ودهاليز الكلوسيوم جاءتني رسالة من صديق لي يلومني كيف لم أذهب للكنائس، وقال: روما تعني الكنائس.

وضحت وجهة نظري من هذه الزيارة، ووضحت له نظرتي إلى البنيان والعمارة.

بعد 45 دقيقة من التجول ذهبت حيث المكان، وانتظرت بقية الباقين حتى نذهب في رحلتنا الأخرى.

جاء المرشد، وكان شابًا يبدو أنه بمنتصف عقده الرابع، وجمعنا وذهبنا خلفه حتى البانتيو؛ ثم الفوروم.

ولأنهما في المكان نفسه تقريبًا؛ فلم نستطع أن نعرف أي منهما إلا بعد مدة.

بدأ الرجل بالشرح، وكانت لكنته الإيطالية تغلب على كلامه الإنجليزي.

بدا لنا من كلام الرجل الملل العظيم.

حتى أنه سألنا: هل يريد أحد السؤال عن شيء ما؟

فقلنا: لا.

قال: كلكم فهمتم كلامي!

لم يكن الرد سوى الضحك.

غير أني قلت في سري خجلًا منه: أنت تتحدث عن شيء مجهول أنا لم أفهم شيئًا.

مضى يشرح ومضيت أشاهد حتى انتهت فقرته المملة التي كانت ربما أكثر الفقرات مللًا في رحلتي كلها، وهذا لا يعيبه بل يعيبني.

تجولت بين المعلمين، وعند وقت العصر تحسست مكانًا يصلح للصلاة؛ فلم أجد فيها كلها ما يصلح؛ فصليت على أحد الكراسي في إحدى الجهات النائية؛ ثم خرجت.

يممت وجهي حسب توجيهات الجوجل ماب نحو نافورة تريفي.

وأنا في الطريق عرجت على ميدان فينيسيا؛ ثم وصلت إلى النافورة التي كانت مزدحمة جدًا

ولكن كوني أحافظ على نفسي من شِركيات الأماني المتعلقة بغير الله؛ فلم تكن النافورة لي إلا كونها من ذكريات فيلم (عنتر شايل سيفه).

قال لي أحد زملائي أن هناك محل جيلاتي -جيلاتو بلغة الطليان- بجانب النافورة جيد جدًّا، ومن ثم ذهبت له مُسرعًا، وطلبت أكبر ما عنده.

ولأن الطليان يشتهرون بالجيلاتو كما أبلغتني صديقة الطائرة، وأنا عاشق لها؛ فكان هذا القدر من أجمل الأقدار، والطعم أفضل ما ذقت.

ذهبت في طريقي ناحية ميدان إسبانيا أو بمعنى أدق السلالم الإسبانية التي يجلس عليها الناس للتصوير آتين من كل العالم، ولا أدري ما الذكرى التي تحملها السلالم غير أن هناك ضابط أمن كلما وجد قوما جلوس أوقفهم، وهكذا يتجول بين المكان.

لا أعلم لماذا يمنعهم، ولا أدري لماذا يجلسون، ولكن السلالم تحتاج إلى سرية، وليست مجرد فرد.

بعدها وجدت رسالة من صاحبي يسألني عن إذا ما كان يمكنني البحث عن إبريق لصنع القهوة الاسبريسو يدعى (موكا بوت) لماركة إيطالية الصنع فقلت له: سأحاول البحث.

صعدت تلك السلالم المقدسة، وبحثت عن مسجد لصلاة المغرب والعشاء، ومن ثم الذهاب للبحث عن ذلك الإبريق.

في طريقي للمسجد وجدت متجرًا للأجهزة المنزلية؛ فسألت عنه فقال: لا، تجده في متجر ما متخصص في تلك الأجهزة.

ذهبت حتى المسجد، وكان وقت الصلاة قد فات.

كان المسجد في السرداب غير أن آثار النظافة لم تبدُ عليه لكن صليت، ورجعت أبحث عن ذلك الإبريق.

بالقرب من المسجد وجدت متجرًا دخلته؛ ثم سألت عنه، فأرشدتني المسؤولة عن المتجر إلى مكانه، وأرتني أحجامه.

استأذنتها في أن أصوره لصديقي ليختار المناسب له فأذنت، ولأن صاحبي أطال الوقت حتى رد عليَّ، تأففت السيدة من الانتظار، وأنا أكاد أقسم لها أني سأشتريه لكن الصبر.

أخيرًا رد صديقي، واشتريت منها اثنين وتحول التأفف لابتسامة.

وبجانب متجر وجدت متجرًا للأدوات، والملابس الرياضية دخلته، وسألته عن إذا ما كان لديه قميص إي سي ميلان يحمل رقم باولو مالديني؛ فقال: يمكنني طباعته على الجديد، أما القديم فلدي بالأسفل حيث متحفًا يضم قمصان اللاعبين؛ لكنه للمشاهدة فقط.

شكرته، وعزمت أن أذهب غدًا إلى متجر النادي نفسه بميلان.

قفلت عائدًا نحو الفندق، وقبل الطلوع ذهبت إلى متجر صغير يبيع هدايا تذكارية؛ فاشتريت منه بعض الميداليات، وملصقات الأجهزة؛ لأكمل بها جميع هداياي التي سوف أهديها لزملائي بالعمل.

وضعت أغراضي بالحجرة؛ ثم ذهبت ناحية المحطة لمقابلة صديقتي الإسبانية التي كانت تريد التعرف إلى بعض الثقافات العربية خاصةً أنه كان لها زملاء في الدراسة سعوديون فذهبنا معًا إلى مطعم ماكدونالدز، وطلبنا قهوة، وتكلمنا معًا عن الثقافات العربية في الطعام، ولماذا أنا متشدد في الطعام والشراب، ولكنها أخبرتني أنها تعرف مسلمين يشربون الخمور قلت لها: وأنا أيضًا؛ لكني لا أعرف مسلمًا يأكل الخنزير.

حدثتها أن هذا تناقض غير مقبول؛ لكنه واقع.

سألتني عن الخليج، وحرارته، ورفاهيته.

بعد نصف ساعة ذهب كل منا في طريقه.

ذهبت أنا إلى مطعم حلال قريب لأني أردت أن أجرب "الرافيولي"، وكنت جائعًا أيضًا.

أكلت في ذلك المطعم؛ ثم عدت للفندق.

خلدت للنوم.

نوم عميق.

صحوت في العاشرة صباحًا قبل موعد القطار بقرابة ساعة.

تجهزت للسفر.

ونزلت قبل موعد القطار بربع ساعة، وتبقى لي عشر دقائق حين وصلت للمحطة.

انتظرت الإعلان عن رصيف القطار الذي لم يعلنوا عنه حتى موعد تحركه؛ فسألت أحد الموظفين، ودلني على الرصيف.

ذهبت مُسرعًا جدًّا حتى ركبت القطار الذي ما لبث أقل من دقيقة حتى تحرك، وهكذا أكون قد أمضيت رحلتي في روما مشيًا على الأقدام، وخرجت منها دون أعرف عن مواصلاتها شيئًا.

مِيلان حِلم الشَّبَاب الذي لم يَتحَقق

انطلق القطار مخترقًا وسط إيطاليا حتى شمالها واقفًا في كثير من المحطات التي تحمل في كل منها مدينة عريقة العمران، وثقافة عظيمة الأثر.

وصل القطار لمحطة (ميلان سينترال) أو وسط ميلان أو مركز ميلان بأدق الوصف المعقول لترجمة الكلمة.

وصلت لميلان، وأنا أحمل في نفسي ذكريات جميلة من دوري الأبطال.

ملعب (السان سيرو).

اصطفاف الفريق؛ استعدادًا للنزول خلف القائد باولو.

بطولتي(2003 و 2007) ويتوسطهم نهائي إسطنبول البغيض.

خط الهجوم (إنزاجي وشيفشينكو) خلفهم الرائع "كاكا".

أسدي المنتصف (جاتوزو وبيرلو) وقبلهم ديمتري "ألبيرتيني".

وخط الدفاع بقيادة "الكابيتانو".

وحتى نصفها الأزرق حيث الأسطورة "زانيتي".

ميلان كان حلمًا لم يتحقق حيث ليس هناك وقت للسان سيرو، ولم يكن هناك مباريات، والمؤكد أني لن أرى (باولو مالديني) يتجول في شوارعها مدة النصف يوم التي سأبقى بها.

هذي ميلان، وهذي الكأس والراح إني أحب حبًّا ثابت الأوتاد.

أنا الميلاني لو حللتمُ دمي لوجدتموه أحمر يخالطه سواد.

يرحم الله نزار فلم يرَ ما فعلت بقصيدته الخالدة.

آه منك يا مدينة صباي..

في مركز المدينة على بعد 10 دقائق من محطة القطارات كان مكان الفندق.

ذهبت له بسهولة.

دخلت فرأيت سيدة كبيرة السن وزوجها أريتهما الحجز، وجهزت مبلغ ضريبة السياحة.

قالت لي السيدة: مكان سكنك قريب من هنا ليس في الفندق، وكان بالفعل على بعد 5 دقائق أخرى.

اصطحبني الزوج، وأخذ يتحدث معي في الطريق، وعما فعلت في إيطاليا؛ فأخبرته بروما، وإني مسافر غدًا.

سألني: من أين أنت، فقلت : مصر فقال: أليساندرية (الإسكندرية)، فقلت : نعم منها

وصلت إلى غرفتي التي كانت غرفة في شقة لا أحد يسكن بها سواي.

صليت ظهرًا وعصرًا.

حملت حقيبة الظهر، وذهبت باحثًا عن مسجد لصلاة المغرب؛ فوجدته بعيدًا بعض الشيء.

استعنت بحافلة غير أن الحافلات تعمل بكروت، وليس بالدفع الوقتي.

قلت للرجل: ليس معي كارت أنا جئت يومًا واحدًا.

لم يعقب لكني نزلت بالمحطة التالية احترامًا لنظامهم، ولنفسي.

ثم مشيت باتجاه المسجد بين البيوت الهادئة التي تشبه إلى حد كبير البيوت التي بمنطقة سموحة، ومصطفى كامل، ورشدي.

مشيت بين البيوت، وكانت الشوارع تعج بأوراق الخريف المتساقطة من الشجر.

وصلت للمسجد قبل الصلاة بوقت قصير.

صليت المغرب ثم العشاء.

وبحثت عن (ميلان ستور).

فأرشدني جوجل ماب لركوب المترو، والنزول في محطة "الدومو".

وهي كانت وجهتي الوحيدة في ميلان أو التي أعرفها حيث الكاتدرائية.

نزلت في محطة الدومو، ومشيت قليلًا حتى وصلت إلى متجر ميلان الرياضي.

دخلت المتجر حيث 3 عمال أحدهما هو ما يبدو كبيرهم متجهمًا.

سألته عن قميص "باولو مالديني"، فقال: لدينا القميص الحالي، ويمكننا طباعة عليه من تريد من اللاعبين السابقين.

وقال: التكلفة الكلية مبلغ 110 يورو أي ما يعادل 38 دينار كويتي.

كان هذا المبلغ أغلى من أول جهاز لوحي اشتريته في الكويت.

دفعت الثمن، وذهبت حيث الدومو، وجلبة التجمعات وأحدث صيحات الموضة، وأكبر البراندات، وأفخم المطاعم، وجميع الجنسيات هنا.

فسبحان الذي يغير، ولا يتغير.

ذهبت لبائع الجيلاتي.

وأخذت علبة متوسطة الحجم غير أنها لم تكن بروعة السابقة.

مكثت قليلًا ثم آثرت التمشي قليلًا ناحية ستاربكس ميلان الذي يعد الأكبر في أوروبا أو هكذا قيل لي.

دخلته غير أني لم تطق نفسي ما به؛ فرجعت للدومو، ومنه ركبت عائدًا للمنزل الذي كان بمحطة تدعى ليما أو ليمو على ما أذكر.

فتحت التلفاز، وشاهدت مباراة يوفنتوس وأتليتكو مدريد في دوري الأبطال.

بين الشوطين شعرت بالجوع فذهبت إلى طعم حلال أخذت منه بيتزا إيطالي، وعدت إلى مشاهدة ما تبقى من الشوط الثاني.

وبعدها بقليل نمت حتى صحوت في السابعة على صوت المطر الذي بدأ بالتساقط، ولم ينتهِ حتى ركبت الطائرة.

ذهبت ماشيًا تحت المطر إلى محطة القطارات حيث حافلات مطار "بيرجامو".

طلعت الحافلة، وأعطيت مسؤول التذاكر(7 يوروهات) قد تبقت مع بجانب 7 أخريات، وذهبت إلى المطار.

خَاتِمة

بنهاية هذه الرحلة سأعود قليلًا للوراء.

والعودة لسؤال كيف بدأت؟!

بمعنى أدق تفاصيل الرحلة من الحجز والتأشيرة.

أولًا: الكويت حيث بلد العمل، وهنا قد تختلف الحال من شخص لآخر أو بالأحرى بين المقيم والمواطن.

ففرصة المواطن في الحصول على التأشيرة تصل ل 100%، ولو كان هناك زيادة لزادت، أما المُقيم ففرصته قوية أيضًا؛ لكن ليست بقوة المواطن.

وهكذا تجري الحياة.

فمنطقة الشنجن تدري أن الكويتي لن يكسر التأشيرة؛ لأن حياته داخل بلده أفضل من خارجها في تفاصيل ليس مجال ذكرها هنا.

أم المُقيم فيشترط عدة أمور لا يجب إغفال أي منها أو إهمالها:

1- تذكرة طيران، وحجز فنادق بمدة الرحلة حقيقيًا، وليس بالضرورة مدفوعين وإن كان المدفوع أفضل.
2- تأمين سفر، وهذا تحصل عليه من مكتب تأمين.
3- شهادة من الشركة تفيد بوجودك على رأس العمل بها راتبك الشهري.

4- كشف حساب لحسابك الذي يودع فيه راتبك لست شهور على الأقل.
5- إقامة سارية مدة تزيد على ستة أشهر فيتبقى في إقامتك مدة تستطيع العودة فيها لا سيما بحدوث طوارئ.
6- جواز سفر به صفحتين فارغتين مقابل بعضهما (صفة للتأشيرة وأخرى للأختام)، ومما يضحك أن في جواب التقديم يخبرك أن عدم توافر هذا الشرط قد يجعل التأشيرة مرفوضة.

ونهاية هذا أن الإخلال بأي شرط قد يسبب رفض التأشيرة.

هذه الطلبات العامة لأي تأشيرة شنجن، وداخل مكاتب السفارات العالم قد يختلف قليلًا؛ إضافة إلى ملء طلب التقديم ببيانات صحيحة.

تأشيرة إسبانيا

تتعامل السفارة الإسبانية مع مكتب خاص بها فقط للتأشيرات تجمع كل ما سبق، وتذهب للمكتب بساحة الصفاة.

وتدفع مصاريف التقديم، وتنتظر.

ثم تنتظر.

لكن السفارة لن تطيل عليك كما في حالتي، والمكتب لن يطيل كما في حالة صديقي.

قدمت يوم الخميس في المكتب المخصص.

لكن السفارة لم تمهلني؛ ففي الأحد أرسلت لي بريدًا إلكترونيًّا تطلب مزيدًا من الإثباتات؛

فسألتني حسب حجوزاتك، أنت تتنقل بين أربع مدن؟

هل حجزت تذاكر السفر بين المدن؟

هل هناك برنامج خاص بكل مدينة؟

هل هناك حجوزات للمعالم بين المدن؟

لو كان هناك ذلك فأرسله إما بالبريد الإلكتروني وإما بالحضور شخصيًّا للسفارة.

قضيت يوم الأحد أجمع في تلك الحجوزات، وأكملها، وأكتب بيانًا بتفاصيل رحلتي بالإنجليزية؛ ثم أتبعته ببيان مرسوم (جدول) يوضح كل يوم.

ولا أخفي أني أرسلت كل ذلك بالبريد الإلكتروني، وأيضًا ذهبت بنفسي إلى السفارة.

فلا هذا يضيع، ولا ذاك يُنسى وإن ضلوا إحداهما؛ فلن يضلوا الأخرى.

بعد 6 أيام من ذلك أخبرني المكتب أن عليَّ الحضور؛ لاستلام الجواز الخاص بي، وكان ذلك قبل موعد الإغلاق بنصف ساعة.

ذهبت مُسرعًا للحصول على التأشيرة أو هكذا كنت أظنُّ، ولم يخب ظنِّي.

هذا فيما يخصني.

فيما يخص صديقي فقد قدم على التأشيرة بعد حصولي أنا عليها، ولكن لأنني أرشدته لما حدث معي؛ فقد حصل عليها بعد ثلاثة أيام من التقديم، ولأن سفره كان قريبًا إذ كان قبلي بأسبوع.

الطيران والفندق:

تذكرة الطيران تعني لي شيئًا واحدًا وسيلة مواصلات.
كما الفندق مكان نوم.
لا أزيد على هذا.
وإن كان هذا لا يصلح في كل الحالات لكن فرق السعر قد يعوض بعض الراحة خاصةً في تلك الرحلات الباهظة الثمن.
حجزت تذكرة طيران ذهاب/ عودة كالتالي: الكويت – إسطنبول – مَدرِيد.
لكن غيرت العودة، وجعلتها من ميلان.
كان الطيران الأرخص هو طيران "بيجاسوس" التركي غير أنه ليس مريحًا جدًّا؛ لكنه قد يفي بالغرض، وكانت التذكرة ثمنها(270 دولار) الأربع رحلات.
أما الطيران الداخلي بين مَدرِيد وروما كانت شركة ريان، وهي جيدة إلى حد ما في الطيران القصير الأمد، وكان ثمنها (80 يورو).
كل هذه التذاكر كانت تحوي على وجبة (ما عدا رحلة روما للخوف من نوع الوجبات)، واختيار كرسي، وأخيرًا حقيبة (20 كيلو) بجانب حقيبة الظهر.

أما الفنادق:
اخترت كل فنادق إسبانيا، وفي الحقيقة لم تكن فنادق؛ بل نزل أو حجرات للإقامة لكن نقولها تجاوزًا عن طريق برنامج (إير بي إن بي).

وكانت كالآتي:

1- مَدرِيد: يوم واحد حجرة داخل شقة بعمارة قريبة من محطة القطار، ولك حمام خاص، وشبكة إنترنت "واي فاي"، وأشياء أخرى لم تكن تعنيني، وكان ثمنها 30 دولار/ ليلة.
وكان يميز تلك الغرفة أنك تعيش مع أهل البيت؛ فلو هناك شخص يقيم طويلًا أو شخص ودودًا يستطيع التعرف على ما يبغ من ثقافات غريبة عنه.

2- إشبيلية: كانت حجرة داخل شقة في بيت كبير به كثير من الشقق غير أن الشقة كانت كلها للإيجار مما جعلني أقابل شخوصًا من دول أخرى، وكانت الليلة ب 40دولار.

3- قرطبة: حجرة داخل بيت يتكون من دورين كانت بالطابق العلوي، وليست بعيدة كثيرًا عن المسجد، والقنطرة وثمنها 20 دولار / ليلة.

4- غرناطة: حجرة كبيرة مجهزة بأدوات مطبخ، وحمام، وبها صالون للجلوس في أعلى البيازين يعيبها ضعف شبكة الإنترنت، وكان سعرها 45 دولار/ لليلة تقريبًا.

5- مَدرِيد: في وقت جولتي الأخيرة بمَدرِيد لم تكن الحجرة السابقة؛ فبحثت عن أخرى لليلتين، وكانت بعيدة عن محطة القطار غير أني لن أحتاجها.
حجزت غرفة كبيرة في شقة بالدور العاشر في شقة بها سيدتان كبيرتان في السن، وكانت بقرابة 35 دولار/ ليلة.

6- رُوما: على غير العادة لم أجد مكانًا مناسبًا خلال تطبيق (إير بي ان بي)؛ لكني اتجهت "لبوكينج" وحجزت من خلاله؛ فحجزت

فندق بشارع "مارسالا"، وهو شارع بجانب محطة القطار مما سهل عليَّ الذهاب لميلان، وكان سعر الليلة قرابة 30دولار.

7- ميلان: كانت ليلة واحدة، وكنت قد حجزت غرفة من خلال تطبيق (إير بي إن بي) على عجل؛ فلم أنتبه أن مكانها بعيد عن وسط البلد؛ فألغيت الحجز، وحجزت من خلال "بوكينج" ليلة في فندق بمبلغ رُوما تقريبًا.

للتحرك بين المدن سواء بالقطار أو الأتوبيس كان من خلال تطبيق "أوميو"، وهو تطبيق جيد يتيح لك الاختيار بين الأتوبيس، والقطار، والطائرة، ومنه حجزت رحلة مَدرِيد رُوما، وأسعاره متغيرة إلى حد ما ليست ثابتة أو قريبة من الثبات كما حال الفنادق أو الطيران.

أما بخصوص المعالم فقد حجزت كل من قصر إشبيلية، ومسجد قرطبة، وقصر الحمراء.

قصر الحمراء كان ب(40 يورو)، ومعه عدة أشياء كما نوهت في الحديث عنه، وقصر إشبيلية كان ب(18 يورو)، ولا أذكر ثمن تذكرة المسجد.

وهكذا انتهى كل شيء عن الرحلة أستطيع إخباركم به.

ولكن قد يسأل البعض عن تقييمي لمدن بالدرجات؟!

وهنا لا أستطيع إعطاء درجة لكل مدينة إلا لو كانت 10/10 لكلهم حتى مَدرِيد التي لم أهوَها لكن جاءتني بمباراة كرة قدم لم يكن ليحلم بها كثير.

كل المدن كانت جميلة؛ لأنها أبرزت وجه الجمال فيها أو لأني ذهبت إلى وجهها الجميل.

انتهى ....

الفهرس

إهداء 5

المُقدِّمَة 6

مَدرِيد 11

ومِن هنا نَبدأ 14

إشبيلية 28

حِكاية المُحبيّن والعُشّاق 44

مَوكِب الإِبَاء 49

عَلى ضِفة المُحِيط 55

قُرطُبَة 66

حِكَاية التَّارِيخ 86

الفتح 87

الدَولَة الأمُوية 88

مُلُوك الطَوائِف 92

السُقُوط 93

غِرنَاطَة 94

فِي مَدخَل الحَمرَاء 104

مَالقَة فِي حِضّرَة البَّحر 117

أخِر أيّام إسبَانيَا 127

الطَرِيق إِلى رُومَا 137

إِيطَاليا 140
رُومَا مَشيًا عَلى الأقدَام.. 145
مِيلان حِلم الشَّبَاب الذي لم يَتحَقق 157
خَاتِمة.. 162
تأشيرة إسبانيا 164
الطيران والفندق: 166